

الرسالة

5 me Année, No 221.

Lundi - 27 - 9 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ رجب سنة ١٣٥٦ — ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

مصر العربيـــة

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

أبهجتنا معشر العرب ونعشتنا كلمة مصر المعرقة في العربية والكرم فى (عصبة الأمم) فى هذا اليوم ، ذودا عن فلسطين إحدى الولايات (المديريات) المصرية من قبل ، وحدتنى على[1] أن أبعث إلى (الرسالة) مجلة الأمم العربية بهذا القول ، وقد أنشأته إذ سمعت ضُباح[2] غرّ غمْر فى عربية مصر ، ومصرية عمرو[3]

* * *

لما كان مهرجان شاعر العربية الأكبر أحمد شوقي (رحمه الله) فى شوال سنة (١٣٤٥) وجئت القاهرة : الحاضرة اللغوية للأمم العربية كيما أجهر بكلمتى فى ذلك اليوم المشهود ، استهللتها بهذا الكلام : « ليست دار العربية رمالَ الدهناء أو هضبات نجد أو الحجاز أو إقليم الشام أو أرض العراق ، بل دارها كل مكان ينطق بالضاد أهله ، ويتلو فيه كتاب محمد (صلوات الله عليه) قراؤه ؛ وأقوى القوم عربية بل العرب العرباء أعرفهم بأدب العربية ،

(١) حداه على كذا لا إلى كذا

(٢) أصل الضباح لمثل البوم والثعلب

(٣) هو سيدنا أبو عبد الله عمرو بن العاص الصحابى العربى المصرى (سلام الله عليه ورضوانه)

فأهل مصر إذن هم القبيل المقدم فى العربية ، وهم سادات العرب»

وهذا التاريخ المصرى ، وهذى أحاديثـه ، وهذه الاسلامية المشرقة فى مصر ، وهذه العربية المنورة فى مصر ، وتلكم الأيادى البيض ، وتلكم الآثار ، وهذه المساعى في هذا الزمان ، وهذه كلمة مصر المجلجلة في (دار العصبة[1]) ذائدة عن فلسطين فى هذا الوقت . كل ذلك يقول لى : صدقت ، صدقت ! ...

فقد ساندت مصر العاملين فى إعزاز العربية وإعلائها يوم كانوا يعملون ، وقد حمت مصر هذه العربية حين لا أباة ضيم ولا حماة يحمون

حملت مصر دونهم هيكل الديـــن وروح البيان من فرقانه[2]

وإن كانت إنما وقت عربيتها وحمت إسلاميتها ، إذ الاسلامية والعربية والمصرية كلمات فى هذا الوجود مترادفات

وما يجادل فى عربيـة المصرية ومصرية العربية إلا كافر بالشريعة الكونية ، وإلا محترق محتقد على هذه الإسلامية ، وإلا ناشئ أضلته على علم (وهو غافل) هذه المدرسة الغربية ، وإلا وغد سمسار باع الغالى رخيصاً فى سوق العلوج والفرنج والحكومات الأجنبية ، وإلا غبي جاهل ، ولهذا يقال :

قد اطلعت على سرى وإعلانى
فاذهب لشانك ليس الجهل من شانى[3]

وإن مصرياً يجهد أن ينسلخ من عربيته لطالب فى الدنيا محالا ، ولن يكون مرغبه إلا من بعـد أن يفارق نحلته ، وينسى لغته ، ويضمحل أدبه ، ويفنى مجده فى ثلاثة عشر قرناً ، ويمحى حسبه ، فكونُ مراده إنما هو بعدمه ، ولن يكون هذا إلاّ ألاّ يكون هو

ومكلف الأيام ضـد طباعها متطلب فى المـاء جذوة نار[4]

. وإذا ذكرنا العربية فإنما نعنى هـذه العبقرية ذات التعاجيب المحمدية ، وهذه القوة الخلقية ، وهذه المقاصد القرآنية ، وهـذه الآداب الالٰهية ، وتلك الحضارة والمدنية

هذه هى العربية ، وإن أظل وهن ، وإن جاء ضيم ، فالقوة فى النفوس ما بادت ، والعزة فى غد « إن مع اليوم غداً يا مسعدة[1] » وإن درج أهلها الأولون أنشد المصريين المنشدون:

فان يك سيار بن مُكرم انقضى فانك ماء الورد إن ذهب الورد[2]

وإن قال عربي منتم إلى العربية ، ما معه من العربية شيء : لست بعربى ، فليس لمصرى أن يقول مقاله ، ويضل ضلاله ؛ إن المصرى هو وارث ذاك المجد ، والمصرية هى وارثة العربية . وإن لم يكن المصرى هو العربي ، فليت شعرى من يكون العربى ؟ وإن لم تكن مصر دار العربية ، فأين — يا قوم — فى الدنيا دارُها ؟

وإن قال زنيم نيط بالمصرية : لست فى شيء من العربية ، قالت له المصرية : ولست فى شيء من المصرية . أنكر العربية فأنكرته المصرية

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم
كما نيط خلف الراكب القدح الفرد[3]

إذا لم يكن المصرى هو العربي كل العربى فهل العربي هو المغربى أو العراقى أو الشامي أو الحجازى أو النجدى أو اليمانى أو الحضرمي أو العمانى أو ذلك البدوى ، ذلك الأعرابى

هل ذهب كل هؤلاء بمنقبة العربية وقعد المصرىّ حجرةً[4] العربيةِ حِجْرٌ[5] عليه . . . ؟؟!!

إن العربية لن تنكر بنيها كُبروا أو حقروا ، نأوا فى الدار أو قربوا ، قلّ عديدهم أو كثروا ، فكل أولئك بنوها ، ولكن يحزنها ويغضبها عقوق فى بنيها ، وأقرب الأبناء إلى أمهم ابن فى الدنيا برّ . وهل رأت العربية فى حين أبرّ بها من مصر ؟

وليست العربيـة بالعزوة ، ليست العربية نسبة ، ولكنها عقيدة ونحلة وملة ، ولكنها خليقة وأدب ولغة

ليست العربية نسبة ، ولكنها جامعة تؤلف بين القلوب ، وفيها وفى شريعتها الحرية ، وليست كمثل جامعة غربية ، لأهلها ضجيج وعجيج « وأولئك الأغلالُ فى أعناقهم »

---

(١) أول هاد إلى مثل هذه العصبة هو كتاب الله : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفئ إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل »

فى (جامع البيان) وهو تفسير ابن جرير الطبرى : قال ابن زيد : هذا أمر من الله أمر به الولاة كهيئة ما تكون العصبة بين الناس ، وأمرهم أن يصلحوا بينهما فان أبوا قاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله فاذا رجعت أصلحوا بينهما

(٢) شوقي (٣) مسلم بن الوليد (٤) التهامى

(١) يضرب مثلا فى تنقل الدول على مر الأيام وكرها (الميدانى)
(٢) المتنبي
(٣) حسان (٤) ناحية (٥) حرام

فالعربي هو ذلك المتمدن المتحضر المهذب المثقف ، المتعلم العالم العزيز الأبي الناطق بلسان القرآن . وليس بعرب « خُرّابُ باديةٍ غَرْثَى بطونُهم [١] » ولا قراضيب [٢] فى (الجزيرة) ولا مُدْلَغِفُون [٣]

وآنف من أخى لأبى وأمى إذا مالم أجده من الكرام [٤]

وقد قلت من قبل : ألاَ إننا كلنا أجمعين عرب أو عربيّون وإنه ليَحُقّ هذا لهجة عربية ألهجنا منذ القديم بها ، وأدب عربى نُجِعْنا به [٥] وترّوينا منه ، وخلق عربى اشتملنا عليه [٦] . وما الأمة إلا لغتها وأدبها وخلقها ، وكنى بذلك جامعاً ، وإن النسب الواشج إلا زائدة ، ولو عزا العازى كل أمة وفتش أصلها لتشظّت وراحت أمماً . . .

وهو قول لم يلاق مكذّباً ، ولم يجد أحد عنه مُتَعَقَّباً [٧]

وإن هذه العربية أم العلم، وربة التفكير ، وزعيمة البحث والنظر — لن تقول لمصرى من أبنائها — وهنالك فى وادي النيل ماهنالك وهناك التاريخ الناطق، وهناك مجد باسق،فلن تقول له : طلِّس [٨] وطرّس ، بل تقول له : مجِّد وقدّس ؛ إنك قد سكنت جنتين ، وكنت ذا المنقبتين ، وكانت دارك مصدر المدنية ، وموئل العربية قد جمعت العز من أطرافه : سؤدد (المصرى) ومجد العربى [٩]

مصر مصدر العلم والمدنية

مصر موئل العرب والعربية

مصر ! حيا الله مصر ! حيا الله رَبعَها [١٠]

محمد اسعاف النشاشيبي

---

(١) المتني ، والخارب اللص وخصه الأصمعى بسارق البعران
(٢) القرضوب : اللص
(٣) الادلغفاف : المجئ للسرقة فى ختل واستتار (المخصص)
(٤) المتنى
(٥) سئل أبيّ عن النبيذ فقال : عليك بالماء ، عليك بالسويق الذى نجعت به أى غذيت به فى الصغر « الأساس »
(٦) من المجاز : عجبت من حاله واشتماله على أخلاق جميلة وسير مرضية (الأساس)
(٧) متعقباً : متفحصاً يعنى أنه من السداد والصحة بحيث لايحتاج إلى التعقب
(٨) طلس الكتاب : محاه وطرسه بالغ فى إزالته
(٩) من مهيار
(١٠) ربعها : قومها

سلوك المرأة
وسلوك الرجل
للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أمر النساء فى كل حال عجيب . وإذا كان أحد من الرجال يفهمهن — كما ينبغي أن يُفهَمن — فأنا والله بهن جاهل . ولى العذر ، فما أراهن يفكرن فى شأن على نحو ما أفكر أنا أو يتناولنه من الناحية التى أتناوله منها . وأحسب أن هذا الضرب من الجهل هو الوحيد الذى لا يعيب المرء أو يسقط قيمته أو يزرى به . قالت لي مرة فتاة من معارفنا : « ماقولك ؟ » قلت : « خير إن شاء الله ! نعم ياستى ! » قالت : « هل يشغلك شيء غداً ؟ » قلت : « إذا كنت تعنين بالشيء العمل فإنه لا ينقطع ؛ على أن أمرى بيد الله ثم بيدى.فأشيرى كيف تأمرين ، والعوض على الله » قالت : « اسمع . نريد . . »

فقاطعتها : « نريد ؟ . هكذا ؟ بلفظ الجمع ؟ »

قالت : « لا تقاطع من فضلك . اسمع . . . نحن أختى وبنت عمى وأنا »

قلت : « أهلاً وسهلاً . . تفضلى »

قالت : « الجو فى هذه الأيام بديع .. تهيِّئ لنا زورقاً حسناً نظيفاً مريحاً ، نركبه فى النيل ونقضى يومنا كله على متن الماء ، ونتغدى فيه أو فى إحدى « المقاتات » التى نمر بها فى طريقنا »

قلت : « اقتراح جميل، ولكن.. أنا وحدي أكون معكن ؟ وفى خدمتكن ؟ ارحمن ينمى يافتيات ! »

فقالت : « تستطيع أن تدعو فلاناً وفلاناً »

فدعوتهما وأعددنا الطعام ومررنا بهن فحملناهن إلى قصر النيل حيث كان الزورق ينتظر ، ولم ألق إليهن نظرة حتى نزلن من السيارة وشرعن ينحدرن إلى مكان الزورق ؛ فدهشت ، فقد كانت ثيابهن زاهية نظيفة مكوية ، بل كانت أفخر وأبرع ما رأيتهن فيه ، فتناولت ذقنى بيدى وقلت : « هيه ... نهارك أسود يا أبا خليل » ولم أكد أهز رأسى هزتين حتى نادتنى إحداهن فنظرت إليها

مستفسراً فقالت : « خذ بيدى فإنى أخشى أن أزل وأقع على التراب أو تغوص قدمى فيه » فسألتها وأنا أتناول يدها :

« أين تحسبين نفسك ؟ فى سباق الخيل ؟ ما هـذه الثياب التى لبستها ؟ »

قالت وهي تحنى رأسها لتنظر إلى قدميها : « ما لها ؟ ألا تعجبك ؟ »

قلت : « تعجبنى وتعجبنى .. ولـكنها لن تعجبك بعد نصف ساعة فى الزورق »

ولا أطيل . ركبن ، ووثبنا نحن وراءهن فأشرنا إليهن أن يجلسن فنظرن إلى المقاعد — ولم يكن بها سوء والله — متأففات مترددات فنفضنا لهن التراب الموهوم عن الحشايا المطروحة على المقاعد . وصحيح أنها ليست وثيرة جداً ، ولا جميلة المنظر ، ولـكنها نظيفة . غير أن فتياتنا تبادلن نظرات تنبئ بالامتعاض ولا تنبئ بالرضى ، ثم انتهين بأن جلسن متلاصقات جداً محاذرات أشـد الحذر ؛ وكان لابد أن أغضى عن ذلك فليس ذنبى أنهن جئن فى ثياب لا تصلح إلا على الأرض اليابسة . وناولت أحد إخوانى مجدافاً وأخذت أنا الآخر ، وتركنا الدفة لثالثنا ، وقام الملاح فدفع الزورق عن الشاطئ بالمردى ، ثم بدأنا نجدّف . وكنت أضرب الماء برفق شديد حتى لا يطير منه شئ ، ولـكنّ رشاشاً منه كان يصيبهن على الرغم من ذلك فيصرخن ويتلاغطن ثم يتدانين ويعبّسن ويمسكن عن الـكلام ولا تبقى لهن عين يدرنها فى المناظر التى جئن لينعمن بالنظر إليها

وأخيراً قال الذى بيده الدفة : « خذ أنت الدفة وأعطنى المجداف »

فلم أتردد فى القبول فما كان يسرنى أن أكون سبب التنغيص . واتخذ صاحبى مقعده وراح يضرب المـاء بعنف فيتعالى الصراخ فلا يعنى بأن يلتفت إليهن ولا يزيد على أن يقول وهو يضحك : « لا بأس ! سينشف الماء ثم يفرك الوحل فلا يبقى شيء ... » وقد حرن ماذا يصنعن لاتقاء هذا المطر . وكنت ربما ضحكت إذ أراهن يخرجن مناديل فى سعة الـكف وينشرنها على حجورهن كأنما من الممكن أن تستر شيئاً .

وأخيراً بلغنا مكاناً دنونا من شاطئه ، وقال الملاح : إن الأحسن أن يجر الزورق بالحبل . وقام فأخرج حبلا طويلا شده إلى الزورق ووثب إلى الشاطئ وراح يجر ، وقعد أحدنا عنـد الدفة ليضبط الزورق فلا يجنح أو يلصق بالأرض . فعاد إلى الفتيات البشر وانطلقت ألسنتهن وإن كن لم ينسين موجدتهن علينا لما أصابهن من البلل . ثم تهامسن ونهضن وجعلن يصحن بالملاح وهو بعيد لا يسمع ونحن نسألهن ماذا يبغين وهن لا يبالين أو يجبننا . وسمع الملاح فوقف وارتد الينا ، وإذا بهن يردن أن يتولين هن جر الحبل أو « اللبان » كما يسميه النواتية . فنصحنا لهن ألا يفعلن وحذرناهن وأنذرنهن فأبين إلا أن يفعلن ، وفى ظنهن أن هذا أسلم لثيابهن ، وأشرح لصدورهن وأجلى للصدأ وأجلب للصحة أيضاً ، فتركناهن يفعلن وأدنينا لهن الزورق من الشاطئ وحملناهن واحدة واحدة إلى الأرض . فذهبن يجرين إلى أول الحبل حيث تركه الملاح ودفعنا نحن السفينة إلى الماء مرة أخرى وكنا نراهن فاذا باثنتين منهن يتناولان الحبل معاً وكانت الثالثة تدور حولهما ولا تصنع شيئاً فمرة تكون أمامهما وتارة تكون خلفهما وهكذا ، فانتهى الأمر بأن التف الحبل على سيقانهن جميعاً فصرخن ووقفن يحاولن تخليص أرجلهن مما أحاط بها فخلصت أرجلهن ولـكن الحبل صار على صدورهن وأعناقهن ، والزورق يضطرب بنا ونحن نحاول أن نضبطه بالمجداف . واستطعن أخيراً وبعد لأى وصراخ فظيع أن يتجنبن شنق أنفسهن ، فتهامسنا بأن الأولى بنا أن نسكت وندعى الجهل بمـا حدث وأن ننظر ماذا يصنعن بعد ذلك . ويظهر أنهن خجلن أن يقلن شـيئاً فعدن إلى الحبل واستأنفن جره فحمدنا الله ولـكنهن كن يمشين شيئاً ، ثم يقفن فجأة وعلى غير انتظار منا ، فيضطرب بنا الزورق فناديناهن ، فلمـا تنبهن إلى أننا نريد أن نكلمهن وقفن وأقبلت علينا واحدة منهن وقفت بعيداً وأشارت إلينا تسألنا عما نريد ، فصحت بأعلى صوتى : « لا تقفن » فقالت ويدها على أذنها : « إيه ؟ » فقلت لصاحبىّ : « صوتكما أقوى فكلاها وأفهماها أن الوقوف يضايقنا ويتعبنا ، ففعلا . فلما عرفت ما نريد بدأت تسألنا هل نحن مسرورون ، وهل هن يحسن جر الحبل ؟ فأثنينا على براعتهن ، وامتدحنا حذقهن ، وأكدنا لهن أن الدولة حين تحتاج إلى ربابنة ونواتية للأسطول فانهن سيكن خير المرشحات أو خير أساتذة المدرسة البحرية . وكنا نرجو أن

تعود إلى زميلتها فيستأنفن جر « اللبان » ولكنها تذكرت أن بها حاجة إلى منديل مما فى حقيبتها فأخرجناه لها وحملناه إليها فذهبت به وإذا بثانية تعود وتصيح بنا أنها هى أيضاً تحتاج إلى منديل فناولناها إياه ، وبدا لها أن الثالثة قد تطلب منديلها فيحسن أن تأخذه لها على سبيل الاحتياط ، فأجبناها إلى ماطلبت ، فذهبت ثم عادت وقالت إن الثالثة لا تريد المنديل فهى ترده لنضعه حيث كان فأطعنا ومضت ، وبعد دقائق أخرى عادت الثالثة تقول : إنها رأت أن الأحسن على كل حال أن تأخذ المنديل ، فدعونا الله أن يعيننا على الصبر وأعطيناها المنديل فذهبت وأوعزنا إلى الملاح أن يلحق بها وأن يتولى هو الحبل ولا يدع للفتيات إلا المظهر

ولما جاء وقت الطعام تخيرنا رقعة من الأرض خضراء ظليلة وتأهبنا للجلوس فنظرت الفتيات إلى الأرض مشفقات من البلل كأنما بقى ما يخشين على ثيابهن التى خططها الحبل بالوحل فنشرنا لهن مناديلنا فان مناديلهن لا تصلح لشىء إلا للزينة . فجلسن عليها كالرماح استقامة ، وكنا نشعر أنهن غير مرتاحات وأن الجلسة متعبة لهن ، وأن خوفهن البلل ينغص عليهن ولكن ماذا كان يسعنا أن نصنع ؟ ولو كان يسعنا أن ننقل لهن بعض أثاث البيت من سجاجيد وحشايا ومتكآت وما إلى ذلك لفعلنا . ولكنا لم نكن نعلم أنهن سيرتدين هذه الثياب التى تصلح للعرض ولا تصلح لرحلة على النيل .

وانحدرت الشمس قبل أن نعود إلى قصر النيل فكدن يبكين لأنهن تأخرن وكن على موعد مع الخياطة ، فعجبنا لا تعادهن معها فى يوم يخرجن فيه لمثل هذه الرحلة التى طلبنها وأردن أن تستغرق النهار كله ... ولكن المرأة هكذا أبداً ... تكون لها عين فى الجنة وعين فى النار . ولست ألومها أو أعيبها فإنها طبيعتها التى لا حيلة لها فيها ، ولكنى أرجو ألا ألام — وأن أعذر — إذا كنت أشعر بالحيرة والعجز فى كثير من الأحيان عن الفهم الصحيح والتقدير المرضى المريح ؛ وأحسب أن الرجال جميعاً مثلى جهلة مساكين . ولا شك أن المرأة يحيرها كذلك مالا تفهم من طباع الرجل وسلوكه ، فالعجب بعد ذلك أن الجنسين يستطيعان أن يقنعا أنفسهما بأنهما متفاهمان ، وأن كل شىء بينهما على ما يرام

ابراهيم عبد القادر المازنى

٢ — مصر

فى أواخر القرن الثامن عشر

كما يصفها الرحالة سافارى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشرف سافارى على القاهرة بعد رحلة ممتعة فى النيل ، فلم ترقه العاصمة ولم تبهره مناظرها كما بهرته مناظر الأسكندرية ؛ ذلك أن القاهرة التى كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الاسلام ، انتهت فى أواخر القرن الثانى عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب ويصف لنا سافارى خطط العاصمة المصرية يومئذ ، وضيق شوارعها وأزقتها ؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثمائة وقلعتها التاريخية المنيفة ، ويقدم الينا سافارى عن القلعة وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اخترع الديناميت ، وان لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع مصوبة نحو مسكن « الباشا » ذلك أن الانكشارية يمالئون البيكوات المصريين ، والبيكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا ، وفى داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين ، قد غلب عليه العفاء والخراب ، ولكن بقيت منه عدة أعمدة فخمة وجدران زاهية ؛ وفى أحد أبهائه المهجورة تصنع الكسوة النبوية التى يحملها أمير الحج كل عام . ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على «قره ميدان» ، ويعقد الباشا الديوان ثلاث مرات فى الأسبوع فى غرفة الديوان الشاسعة ، وقد خضبتها دماء البكوات المصريين الذين فتك بهم الباب العالى قبل ذلك بأعوام قلائل . أما اليوم فهم سادة مصر ، وليس لممثل السلطان أية سلطة فعلية ، وإنما هو أداة فى أيديهم يحركونه طبق أهوائهم ، بل هو سجين فى القلعة لا يستطيع أن يغادرها دون إذنهم . أما الانكشارية فيسكنون فى قصر صلاح الدين وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمته السابقة ، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر ؛ وإلى جانبه توجد منظرة عالية تشرف على القاهرة ، يرى منها منظر المدينة الرائع بميادينها ومآذنها وحدائقها

وهنا لا يتمالك سافارى نفسه من أن يصيح : « ان المطل من هذه المنظرة لتأخذه نشوة من التأملات اللذيذة » ولكن يغشاه فى الحال كآبة ، فيقول لنفسه : « ان هذه البلاد الفنية التى كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتلها اليوم شعب جاهل بربرى يسومها سوء الخسف ؛ أجل إن الطغيان ليسحق بنيره الحديدى أجمل بلاد العالم ؛ والظاهر أن شقاء الانسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده . . . »

هكذا يقدم لنا سافارى ذلك المنظر المحزن منظر مصر الاسلامية وقد أودى الحكم التركى الغاشم بكل عظمتها وبهائها السابقين .

***

ويصف لنا سافاري ثغر بولاق الذى كان مدخل القاهرة يومئذ ، ومرساه الضخم الذى يغص بمئات السفن ، وما به من الخانات التى خصصت لسكنى التجار الأجانب وتخزين بضائعهم . وفى مياه بولاق أيضاً كانت ترسو سفن النزهة البديعة التى يتخذها البكوات وغيرهم من الأكابر للنزهة والسمر فى النيل أيام الصيف الحارة ولا سيما فى الليالى المقمرة . ثم يصف الرحالة بعد ذلك جزيرة الروضة والمقياس ، ويستعرض تاريخ مقاييس النيل وقصة وفائه ؛ وهنالك فى الروضة على مقربة من المقياس كانت طائفة من القصور الفخمة التى خصصها البكوات للتنزه فيها مع حريمهم وهى منعزلة تحيط بها الرياض الفيحاء ، ولا يسمح لانسان بالاقتراب منها ولا سيما حينما يوجد بها حريم الأمراء .

أما الحياة الاجتماعية المصرية فيخصها سافارى بكثير من عنايته ، ويفرد لها عدة رسائل شائقة ؛ وهو يصف المصرى بالكسل ، ويقول لنا إن الجو يؤثر فى عزيمته ، ومن ثم فانه يميل إلى الحياة الهادئة الناعمة ، ويقضى يومه فى عمله وفى منزله ، ولا يعرف المصري صخب الحياة الأوربية وضجيجها ، وليست له أذواق أو رغبات مضطرمة . ونظام العائلة المصرية عريق فى المحافظة ، فرب البيت هو السيد المطلق ؛ ويربى الأولاد فى الحريم ويدينون للوالد بمنتهى الخضوع والطاعة والاحترام ، ويعيش أفراد الأسرة جميعاً فى منزل واحد ، ويتمتع الوالد بكل مظاهر التكريم والاجلال ولا سيما فى شيخوخته . ويجتمع أفراد الأسرة حول مائدة الطعام جلوساً على البسط ؛ وبعد الغداء يأوي المصريون إلى الحريم حيناً بين نسائهم وأولادهم ؛ وفى المساء يتريضون فى النيل فى قوارب النزهة ، ويتناولون العشاء بعد الغروب بنحو ساعة . وهكذا تجرى الحياة على وتيرة واحدة . ويشغف المصرى بالتدخين ويستورد الدخان من سورية ويخلط بالعنبر . وللتدخين أبهاء خاصة منخفضة يجتمع فيها السيد مع مدعويه ؛ وبعد انتهاء الجلسة يأتى الخادم بقمقم يحترق به العطور ، فيعطر للمدعوين لحاهم ، ثم يصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم .

والمرأة المصرية ماذا كانت أحوالها فى ذلك العصر ؟ يقول لنا سافارى إنها كانت كالرقيق لاتلعب أى دور فى الحياة العامة ؛ وإذا كانت المرأة الأوربية تسيطر على العروش ، وتقود الآداب والعادات ، فان دولة المرأة فى مصر لا تتعدى « الحريم » ولا علاقة لها بالشئون العامة . وأعظم أمانيها أن تنجب الأولاد ، وأهم واجباتها أن تعني بتربيتهم . والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها ، وفيه يربى الأولاد حتى السابعة أو الثامنة . كذلك يعنى النساء بالشئون المنزلية ، ولا يشاركن الرجال فى الظهور ، ولا يتناولن الطعام معهم إلا فى فرص خاصة ، ويقضين أوقات الفراغ بين الجوارى والغناء والسمر ؛ ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع . وهنا يصف لنا سافارى حمامات القاهرة ، ومناظر الاستحمام والزينة ، وكيف يشغف النساء بالذهاب إلى الحمام مع جواريهن ، وهنالك يقضين أوقاتاً سعيدة بين مجالى التزين واللهو ، ويستمعن في الابهاء الوثيرة إلى الغناء وقصص الحب

وتستقبل المرأة زوارها من النساء بأدب وترحاب ، ويحمل الجوارى القهوة ، ويدور الحديث والسمر ، وتقدم أثناء ذلك الفاكهة اللذيذة ، وعند الانتهاء من تناولها تحمل الجوارى قماقم ماء الورد فيغسل المدعوات أيديهن ، ثم يحرق العنبر وترقص الجوارى . وفى أثناء هذه الزيارات النسوية لايسمح للزوج أن يقترب من الحريم ، إذ هو مكان الضيافة الخاصة ، وهذا حق تحرص المصريات عليه كل الحرص . وقد ينتفعن به أحياناً لتحقيق أمنية غرامية ، إذ يستطيع العاشق أن ينفذ إلى الحريم متنكراً فى زى امرأة ، فإذا لم يكتشف أمره فاز ببغيته ، وإذا

اكتشف أمره كان جزاءه الموت . والمرأة المصرية مفرطة فى الحب والجوى ، مفرطة فى البغض والانتقام ، وكثيراً ماتنتهى الروايات الغرامية بفواجع مروعة

وتوجد طبقة خاصة من نساء الفن هى طبقة القيان «العوالم» ، وهؤلاء العوالم يمتزن بالذلاقة ومعرفة الشعر والمقطوعات الغنائية ، ولا تخلو منهن حفلة ، وتقام لهن منصة يغنين من فوقها ، ثم ينزلن إلى البهو ويرقصن فى رشاقة ساحرة ، وأحياناً يبدين فى صور مثيرة من التهتك ، ويدعون دائماً فى كل حريم ، وهنالك يروين القصص الغرامية ويخلبن الألباب بذلاقتهن ورشاقتهن وفصاحتهن .

وهكذا يحدثنا سافارى بافاضة عن الحياة الاجتماعية المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولأحاديثه فى هـذا الموطن قيمة خاصة ؛ فهى أحاديث باحث مطلع درس وشهد بنفسه ، وملاحظات عقلية مستنيرة ، تمتاز باتزانها ودقتها فيما نلاحظ وفيما تصف وتعرض

* * *

وأخيراً يصف لنا سافارى آثار هليوبوليس والجيزة ؛ ويقدم لنا عن الأهرام وأبى الهول صوراً شعرية ساحرة ، ويستعرض مختلف الروايات عن أصلها وبنائها منـذ هيرودوت إلى عصره ، ويصف لنا منفيس وأطلالها ، ويحدثنا عن الجيزة وخططها وتاريخها وعن الفسطاط ومعالمها وكنائسها وآثارها ، كل ذلك بافاضة ممتعة تتخللها مقارنات وملاحظات تاريخية قيمة ؛ ثم يحدثنا بعد ذلك عن رحلته في دمياط وضواحيها ، وكيف تتبع فى رحلته سير حملة القديس لويس الصليبية منذ نزولها في دمياط وسيرها بعـد ذلك حتى مدينة المنصورة . ويقدم إلينا خلاصة تاريخية لهـذه الحملة الشهيرة مشتقة من المصادر الاسلامية ومذكرات دى جوانفيل مؤرخ الحملة وأحد شهودها

وإلى هنا تنتهى رسائل سافارى عن الوجه البحرى ومدينة القاهرة والحياة الاجتماعية المصرية ، وهذه الرسائل تشغل الجزء الأول من مؤلفه عن مصر ، وهى أهم وأقوم مافى المجموعة . أما بقية الرسائل ، وهي تشغل الجزءين الثانى والثالث ، فيخصصها سافارى لوصف رحلته فى الوجه القبلى ، ووصف مدنه وآثاره وواحاته ، ثم وصف الجو والاقليم والزراعة والتجارة ، وديانة المصريين القدماء وآلهتهم ، والنيل وخواصه الأزلية ؛ وهـذه الرسائل تحتوى كثيراً من البحوث والملاحظات القيمة ، بيد أنها لا تقدم إلينا جديداً يعتد به ، ولذا اكتفينا بالاشارة إليها

* * *

هذه خلاصة شاملة لرسائل العلامة المستشرق سافارى عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهى رسائل لا شك فى قيمتها وأهميتها ؛ وإذا استثنينا مذكرات الجبرتى ، فإن رسائل سافارى تعتبر أنفس وثيقـة من نوعها عن أحوال مصر فى هذه الفترة المظلمة من تاريخها ؛ وتبدو قيمة هذه الرسائل بنوع خاص فيما تقدمه إلينا من صور الحياة الاجتماعية المصرية بافاضة لا نجدها فى مصادر أخرى ؛ فهى من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية خاصة . وقد كانت بحوث سافارى بلا ريب مصدراً من أقوم المصادر التي انتفع بها علماء الحملة الفرنسية فيما بعـد حينما وضعوا موسوعتهم الشهيرة فى « وصف مصر » بعد ذلك بنحو ربع قرن (١)

تم البحث

(فينا في أوائل سبتمبر) محمد عبد الله عنان

(١) اعتمدنا فى استعراض رسائل سافارى على الطبعة الكاملة من رسائله التى ظهرت سنة ١٨٨٥ فى ثلاثة أجزاء ؛ واعتمدنا فى نقل ترجمته الشخصية على معجم لاروس الكبير

على تمثال فوزى المعلوف

كلمة الأستاذ فليكس فارس

في حفلة ازاحة الستار عن تمثال الشاعر فوزى المعلوف
في ١٢ سبتمبر في مدينة زحلة — لبنان

عند ما أزيح الستار عن هذا النُّصب كأنه إنسان عين لبنان. وحبة القلب في بلاد العرب، رأيت الذرى المحدقة بهذا الوادى تميد من جهاتها الأربع وقد أطلت من ورائها طغمات أصنام تتراشق نظرات الاستغراب وتتبادل هتفات الاستنكار

إننى أعاينها بالجرح الوسيع فتحته في القلب أدواء البلاد ونكبات الأمة ، وأسمع صخبها وضجيجها بالأذن التى لم تزل تدوى فيها زفرات البائسين وصيحات المشردين والشهداء

أولئك هم أصنام الشعب المستضعف الفلول، استفزهم ما راود أمجادهم من حذر ، وخامر أحلامهم من وساوس، فترا كضوا من مقاعد الزعامات والمناصب المنتزعة بدهاء الجهل ودسيسة العجز ، ومن أبواب الهياكل والمعابد وجوانب القوى المسيطرة على العناصر الحائرة المتعثرة ، هرعوا يتصايحون :

نحن أرباب هذه الأرجاء وأسياد شعبها . . نحن الأحياء يعبدنا الأحياء ، فمن ترى هذا الصنم الجامد لايملك سمعاً ولا بصراً يرفع على مثل أنصابنا فيحنى الناس الرؤوس أمامه خاشعين ؟

من هذا الدخيل الجامد الصامت تقحمه الهيكل قوة مجهولة وتفرض به على النفوس عبادة لاتوجه إلينا ، محرقة عند قدميه بخوراً لايتعالى نحو تيجاننا ؟ وصاح أحد صغار الأصنام بأسياده الجسام : أفما عرفتموه ؟ إنه ذلك الفتى الضعيف الناحل الذى كان يحدجنا بلفتات الاحتقار ويقرع أسماعنا بأناشيد زهوه واغتراره . إنه هو الذى أنكر ألوهيتنا المتعددة السائدة على عشرات العناصر المتقاطعة ، فادعى أن للوطنية إلهاً واحداً وأن قطعاننا قطيع واحد لراع واحد هو حق الحياة

أفليس هذا الصنم الجامد ، ذلك الفتى الذى رأى فى عزتنا مذلة لقومه، وفى عظمتنا صغارا لبلاده، فتوارى وفى دمعته نار وفى أنينه إرعاد

فقالت طغمة الأصنام : ومن يجرؤ على رفع هذا الانسان المتحجر إلى مصاف الأرباب فيقتعد المنصة العالية فوق مستوى الرعية ؟

أوصل هذا الانسان إلى نفوذ سر السيادة فرقص على الحبلين، وتعارج على الساقين ، موهما الشرق أنه ذو الحول والطول وراء ستائر الغرب ، ثم عاد موهما الغرب أنه يقود من بلاده قطعاناً له تخديرها إذا شاء واستنفارها إذا شاء ؟

ألهذا الرجل منبسطات السهول ومرتفعات الأنجاد ليستغلها بالسياط تلهب ظهور العاملين فيستقطر من جلودهم نضاره ويقيم على عبوديتهم زعامته . . ؟

أعرف أن يستغل نزعات طائفة أو مطامع عنصر أو تعصب فئة فاستنبت زعامته من الضغائن وأنماها من الأحقاد ؟

أورث مالاً من جدوده فابتاع من متسولات الضمائر مقاماً يسمع الناس منه روائعه وبدائعه ؟

أجهل لغة قومه أم تجاهلها، وأعرض عن تقاليد أجداده أم استنكرها ، محاولا اقتباس مظاهر تتمرد سريرته عليها ؟ هل أقام المآدب وأحيا المراقص نخاصر واستخصر ليثبت أنه أهل للمدنية وقيادة الشعوب إلى النور أم هو توسل على الأقل بالمتابعة متخذاً منا موقع الذنب ؟

بأية فضيلة من فضائلنا تحلى هذا الابن ليرفعه من حوله إلى مقام الأرباب ؟

ووجمت الأوثان التى عبدت حتى الأمس القريب متسائلة عما إذا كان العهد الجديد المشرقة أنوار ضحاه ولو بعد حين سيرفع لأمثال هذا المتمرد من الأموات أنصاباً وسينادي بأمثاله من الأحياء أرباباً

***

إن أنوار الحق تتفجر على كل قطر عربى ؛ فنى لبنان كما فى مصر والعراق وسوريا وبلدان الجزيرة كلها أبطال يقوضون مقاعد الأصنام فى السياسة كما قوضها من قبل فى الدين رسل الله وأنبياؤه . وهاهى ذي أوثان الأمس تتلمس رؤوسها بسواعدها المرتجفة متراجعة بخطوات من فقد ثقته بنفسه

اعزبى أيتها الأوثان أيا كنت ومن أية جهة طلعت رسومك على الآفاق ، فما النصب الذى يحييه أحرار الأمة الآن بالصنم الذى يزاحمك فى هيكل الوثنية ، وقد آن لها أن تضمحل . ما نصبنا إلا

تمثال عزتنا الجريحة وقوميتنا المضللة ؛ إن هو إلا الرمز الكامل لآلامنا وجهادنا في المرحلة التي قدر علينا أن نجتازها ، ليرد الاختبار سوانا إلى محجة الصواب ولنعرف نحن أن نميز بين طريق سلامتنا ومهاوي انقراضنا .

ليس المقام مقام تأبين وتفجع على من يمثل هذا التمثال فإن صفحات تاريخ الأدب مليئة بكلمات أمراء البيان عمن خشع الغرب لبيانه الشرقي وما حلق فوقه من متقدميه ولا من معاصريه بيان . ولئن كان مأتم فوزي من أروع الأيام وأفجعها على الشرق العربي بأسره فإن يوم فوزي إنما هو اليوم الذي يرتفع فيه تمثال صفحة خالدة طبعت عليها مساوئ فترة الانتقال وفجائع طور التجاريب .

أي أخي فوزي ! يا شاعر الأمة المشردة . إنني وأنا أنظر إلى ابتسامتك المرة واشراق جبينك المتجهم أسمع صوتاً يقرع الفضاء من أصداء هذا الوادي مردداً قولك :

أنا الغريب فلا أهل ولا وطن
إذا انتسبت أمام الناس وانتسبوا
ومن يكون غريباً في مواطنه
لابدع إن أنكرته الأرض والشهب

ويليه ، صوت آخر يتردد على ذلك الشاطئ الحزين صداه

قسما بأهلي لم أفارق عن رضى
أهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت بأن أعيش بموطني
عبداً وكنت به من الأسياد

أسمع هذا الإنشاد فيخيل إلى أن صيحات جيل كامل في أمة مروعة فقدت قوميتها فخسرت أوطانها

إن لخطرات الحظ تأثيرها على الأمم كما لها تأثيرها على الأفراد ؛ وليس للفرد كما ليس للمجموع أن يطفر من سلسلة الوقائع إلى مستقر يستحدثه فجأة لنفسه ؛ غير أن هنالك قوة سمها الارادة الجزئية إن شئت تتمرد على الانقياد لما يضير ، فاذا هي تنبهت صمدت بوجه التيار بالمقاومة السلبية حتى يعبر الكاسح فتتمكن من استئناف سيرها نحو وجهتها ، وإن هي استسلمت وجبنت فقدت الشعور بذاتها ومشت متطايرة مع العاصف ينثرها هباء على ممرا كضه ..

إن هذه الأمة التي كونت شخصيتها من مبادئ واحدة في الأصل ومن ثقافة انطوت سريرتها عليها منذ أجيال ، ومن بيان وحي علوم المتقدمين ، وما قصر عن استيعاب علوم المتأخرين لا يستقيم لها أمر ولا يستعاد لها مجد مالم تتوصل إلى إحياء حضارة تتوافق وما كمن فيها من فطرة وحوافز

لقد مرت بهذه الأمة أدوار من التاريخ قضت على استقلالها وحضارتها فذهبت قطعاناً مبددة تتراكض وراء كل ناعق يجزها ويحز رقابها ، ولو أن العناية لم تستبق لنا في كل حقبة أنموذجاً لكياننا ورسماً لما كنا ولما يجب أن يكون لما بقي لنا من صفاتنا الأصلية شيء نستدل به على حقيقتنا

إن سريرة الأمم المبتلاة بالانحطاط المرهقة بالمظالم تنكمش منسحبة من كتل الشعب لتتجلى من حين إلى حين لمعات أنوار في بيان عباقرته المتمردين . وإذا نحن استعرضنا فيلق المجاهدين من أول منبه للفاضلين تحت الأطلال إلى هذا المنتصب بيننا الآن كأروع رمز لشخصية الأمة الكامنة وراء تشردها وتقاطعها ، لما رأينا واحداً من هؤلاء المجاهدين ينزع مثل هذه المنازع الضليلة التي يتوغل فيها المشككون الحائرون في هذه الأيام

إذا شئنا أن نتبين حقيقة موقفنا من أنفسنا ومن سوانا ، وإذا صعب على البعض منا أن يتميز طريقه إلى قوميته ووطنيته فليتنصت إلى ما تصدو به أجواء البلدان العربية كلها من أقوال المصلحين الذين عاشوا بآمال أمتهم وماتوا بعللها وأدوائها

أولئك المضطهدون هم أولى باثارة سرائرنا ممن كانت حياتهم لهم لا للناس ، فما شعروا بذل الأمة لأنهم استغلوه ، وما أحسوا بأنهم غرباء في أوطانهم لأنهم أنكروا كيانها ومالأوا على حقها ما يثير النعرات الدينية والاقليمية في هذه البلاد إلا الأنانيون الذين يرون في تبدد الأقوام تجارة رابحة لسعاياتهم ، أما الأرواح الجبارة التي أشبعت من مبادئ الشرق العليا حرية واستقلالاً ومجداً فانها تمر بأجنحتها محلقة فوق كل عنصر ثقافته من وحي الشرق ، والهامه وبيانه من لغة كفلت حياتها قوة لا تطاولها قوة ...

لقد كان زمن أمكن فيه للأمة أن تبعث جسماً واحداً حين مزقت كفنها وشقت لحدها ، ولكنها انتثرت بين أنامل الجامعين وقد عبثت بالرمة أهواء الحياة بعد أن جمعتها روعة الموت ، فاذا بالميت الواحد هيا كل عظام عديدة تهب من مرقدها منفرطة

يتسلق كل منها ذروة لاستقبال أنوار الضحى وأوائل شعاع الشمس

تلك سانحة من الدهر ولت ولن تعود ما لم نستعدها بعشرات الأعوام جهود من يذكرون أن جميع هذه الهياكل القزمة ، وقد بدأت تدب فيها الحياة ، إنما هي هيكل جبار واحد جرعه سيف واحد وتسجى طوال الأجيال جثة واحدة فى قبر واحد

لا يضع للأمة دستورها الحقيقي إلا من مثلوا سريرتها وثقافتها شاملة لروح المذاهب والعناصر كلها ؛ وما أدري أن بين عباقرة الشرق العربى أحياء وأمواتا من سجن روحه بين جدران طائفته وحطم جناحى عبقريتـه فى قفص إقليمه منكراً وطن فكرته الواسع الأرجاء ...

هنالك تحت ظلال الأرز نصب لم يزل يهتف من أعلى ذرى لبنان بقوله :

أنا مسيحى ولى الفخر بذلك ، ولكننى أهوى النبى العربى الكريم ، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله . إننى أسكن المسيح شطراً من حشاشتى ومحمداً الشطر الآخر

أنا شرقى ولى الفخر بذلك ؛ ومهما أقصتنى الأيام عن بلادى أظل شرقى الأخلاق ، سورى الأميال ، لبنانى العواطف

ذلك هو نداء جبران ؛ فما ذا تجيبه يا فوزي ؟

أفما أنت شاعر الأمة المشردة ؟ أفما تمازجت فى روحك كل عظمة من وحى أنبياء الشرق جميعهم ، ومن إلهام عباقرته وفروسية أبطاله فى كل زمان ومكان ؟ ...

أفترضى أن يضرب حولك من لبنان نطاق يوقفك فى طريق النهضة وقفة تمثال أودنيس فى جبيل وباعال وباخوس بين أعماد بعلبك المحطمة ؟ ...

لا وحقك يا فوزي ، ماأنت فى تقدير أخيك الذى قاد أوائل خطواتك نحو قمة الخلود ، وفى تقدير كل نافذ لروحك ومدرك لعظمتك إلا المثل الأعلى للوطنية الحقة التى عشت من أجلها شريداً ومت من أجلها شهيداً ...

اليوم لا ترى حولك إلا فئة قليل عديدها تطوف ممجدة فيك الشاعر المبدع الكبير ، ولكنك سترى غداً أفواجاً من كل عنصر ومن كل قطر عربى تتوارد اليك لتحيي فيك بطلاً من طليعة الفيلق الذى حطم سلاسل الأمة بتحطيم أصنامها والقضـاء على أرباب شركها وأوهامها

فليكس فارس

محمد بن جعفر الكتانى

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتانى

تمهيد

فى تاريخ الرجال كثير من الخلاف يكاد يعجز الباحث والمؤرخ عند ما يريد التوفيق — وتاريخ رجال المغرب ورجال المشرق فى هـذا سواء — فبينا أنت تقرأ عن خالد مثـلا أنه ولد فى القرن الثاني إذا بك تجد في تاريخ آخر أنه مات في القرن الرابع ، ثم هو نفسه تارة يصوره لك بعض المؤرخين فى صورة العابد العالم الثقة الصدوق ، وحيناً تقرأ عنه عند غير المؤرخ الأول أنه لم يكن بالعالم ولا الثقة وإن هو إلا كذاب مضل . وفى كتب التراجم أمثلة لهذا النوع كثيرة .

ويريد جمع من النقاد معرفة السبب فتعييهم المعرفة ويعلمهم تعداد الأسباب والاحتمالات فيقفون عندها دون جزم بواحد منها

وعندى أن لذلك أسباباً كثيرة أهمها :

(١) فقدان الثقة فى كثير من المترجمين . إذ هؤلاء يكتبون — عمداً — ما توحيه إليهم أغراضهم وإن خالفت ما يعرفون .

(٢) جهل بعضهم بحالة المترجم ، فهم إذا سئلوا عنه حملهم الاعتداد الكاذب بالنفس أن يجيبوا بصفات لو قدر وعاش المسؤول عنه وسمعها لنفاها وأنكر أن تكون فيه ؛ وقد يضطر هذا المجيب لكتابة ما أجاب به فيزيده تنميقاً وتزويراً في جمل مغرية مشوقة يستر بها تضليله وكذبه .

(٣) الخصومة المذهبية . فترى المؤرخ فى هذه الحالة يهتم اهتماماً مريباً بالبحث عن النقائص ، حتى أنه ليجهد نفسه إلى حد الإعياء ليخرج له معايب من قصص وحوادث تافهة لا يؤبه لها عادة . وكنا نحسن الظن فى هذا الخصم المذهبي لو اعتنى بالمزايا اعتناءه بالنقائص ولكنه لا يعرج له على مزية ولو كانت كوضح الشمس ، وبالعكس الحب المذهبي ، فبقدر ما يخفى الأول من مزايا ومحاسن يستر هذا الثانى العيوب والمخازى .

(٤) الاستسلام لاحدى عاطفتى الحب والبغض ، فذاك صديق المؤرخ أو سلف لصديقه توجب عليه المجاملة والاطراء المتبادل أن يخضع لمقتضيات هذه الصداقة فيُحسّن القبيح ويقبّح الحسن ويعرف المجهول ويجهل المعروف ، وبالعكس لو كان المترجم عدواً له أو سلفاً لعدو ؛ وقد يكون الحامل على الحب أو البغض غير الصداقة والعداوة

(٥) الخوف من ذي نفوذ أو سلطان ، فهو إذا تكلم بالحقيقة عذّب وأهين فيتحاشا هذه الاهانة وذاك العذاب — إذ لم يكن من الكلام بد — بالتقية متأوّلا على أنها مذهب لكثير من طوائف المسلمين إن لم يكن ديناً فتديناً ! وقد يستغنيعن التأويل . وهذا السبب الخامس لم يكد يخلو منه أحد من مؤرخى المتقدمين والمتأخرين

(٦) الجبن الأدبى أو يسمونه بفقدان الشجاعة الأدبية ، فهو إذا تكلم خاف ألا يقبل كلامه أو يتهم فيه بغرض ، ومن خصائص هذا الجبان الأديب الخوف من النقد لحد الهلع ، وإن تحمس يوماً واقتحم هذه الأوهام وكتب شيئاً لايجرؤ أن يوقعه باسمه الصريح بل يكتفى بالرمز ؛ وهذه العلة هى داء كثير من الثقات فى هذا العصر لو تغلبوا عليها لأنتجوا وأفادوا

وأزيدك شيئاً وهو أنى لا أرى علاجا لهؤلاء أنفع من وجوب اعتبار الشروط المطلوبة فى رواة الحديث من عدالة وضبط ومعرفة فى مؤرخى الرجال ، فكما أن المحدث لاتقبل روايته إذا فقد منه أحد الشروط الثلاثة فكذلك المترجم لايلتفت لكلامه إلا إذا عرفت ثقته وعدالته ومعرفته بالرجل الذى يترجم له معرفة بثبت سندها ومصدرها ؛ وبهذا فقط تسلم الأعراض من الأغراض وتحفظ الحقوق فلا يوضع رفيع ولا يرفع وضيع

لهذه الأسباب التى جعلتها كقواعد جامعة لما لم أذكر من العلل ولغيرها سقطت قيمة كثير من كتب التراجم قديماً وحديثاً . وتمتاز الحديثة منها (والحمد لله الذى لا يحمد على شر سواه) بالتفنن فى أساليب الطعن والغمز واللمز ببراعة لايفطن لها الكثير من الناس إلا قارئ عنى بها عناية خاصة أو قارئ أتيحت له معرفة دخائل جامعيها ونواياهم . أضف إلى هذا مافيها من تراجم قوم لم يعرفوا بين عشيرتهم حتى بالطلب قد أغدقوا عليهم من بحور العلم ما غمرهم ومن جبال السنة ما دك كواهلهم دكا ، ومن صفات النبل والكرم ما أصبحوا به ملائكة تعوزهم الأجنحة إلا أن معرفة مرافقيهم بهم قصتها ، ومن ضروب الاصلاح والارشاد ما يشرحه العارفون بلغتهم على النقيض من ظواهر اللفظ والمعنى، وهنا يجمل المذهب القائل بأن لكل (١) لفظ ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً .

وبعد فهذه ترجمة إمام كبير عرفه الناس قبلى وترجموه لكن باختصار وعلى غير هذا الأسلوب ، تربطنى به صلة هى صلة الوالد بالولد ، بل صلة الروح بالجسد ؛ ولكى يطمئن قارئى ويهدأ روعه أعاهده عهداً أدين بوفائه ألا أكون أحد أولئك المترجمين الستة ؛ وسأحمل نفسى على تناسى هذه الصلة الكريمة زمناً ؛ وسأعنى بالحق المجرد ولو كان على أو عليه مقتصراً على ذكر حياته — دون تحليل — فى شئ من التفصيل وتاركاً كثرة تلك التعاليق الفضفاضة التى اعتادها الناس اليوم والتى إن دلت على شئ فإنما تدل على نفس المؤرخ أكثر مما تدل على نفسية المؤرخ له ، ولا يفزع إليها غالباً إلا من فقد مادة القول فى أحوال من يترجمه وماجرياته . وفى اعتقادى أن ذلك مما يشوه الحقائق التاريخية ويغطيها بحجاب كثيف يعسر على الناقد النزيه تمزيقه ويقصي القارىء عن تفهم الأشياء بعقله لا بعقل سواه غير متأثر ببيئة أو مذهب

وقد رتبت حياته على فصول ، فأذكر أولاً أسرته ثم نسبه فنشأته فمشايخه فتلاميذه ، معرجاً على وصف خلقه وخلقه ومذهبه ومعارفه وثناء الكبار عليه ومدائح الشعراء فيه وتعلق الملوك به ، ثم أرجع فأتحدث عن رحلاته ومؤلفاته وشرح العلماء لها أو ترجمتها أو نقدها وأختم الترجمة بحادثة وفاته ورثائه ونقله فذكر مترجميه فأوهام بعضهم فمصادر الترجمة

وقد أخالف هذا الترتيب أو أسهب فى فصل وأختصر فى آخر مضطراً فى الاسهاب والاختصار لما بيدي من ثروة المادة أو فقرها

---

(١) ورد هذا المعنى خاصاً بآى القرآن فى بضع أحاديث مرفوعة أخرجها الطبرانى فى معجميه الكبير والأوسط والبزار وأبو يعلى ، صحح الحافظ نور الدين طريقاً منها على شرط الصحيح ونقله السيوطى تحسين حديث الأول في الكبير وموقوفه على ابن مسعود عند الطبرانى أيضاً ومرسله عن الحسن البصرى عند أبى عبيد فى فضائله وأبى نصر السخرى فى الأبانة وانظر معناه عند الحافظ الطحاوى فقد رواه مرفوعا فى مشكل الآثار جـ ٤ ص١٧٢

أسرته

تنحدر أسرة الامام ابن جعفر من سلالة الفاتح بن الفاتح ادريس بن ادريس المطلبي الهاشمي الحجازي ثم تتشعب بطوناً وأفخاذاً حتى تنحصر فى ملك زواوة الـكتاني يحيى بن عمران

كانت فاس مقر أسلافه فى ظلال ملوك دولتهم الادريسية التى ملـكت [1] مائتى سـنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً وكان عملها [2] بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملـكهم مدينة فاس ثم البصرة ، وكانوا يكابدون مملـكتين عظيمتين ومتغلبين كبيرين هما دولة العبيديين بمصر وأفريقيا ودولة بنى أمية فى الأندلس ، وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة العظمى ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم بالنسبة إلى هاتين الدولتين

وفى سنة ٣١٧ تغلب موسى بن أبى العافية السفاح البربرى على جميع بلاد المغرب بعد حروب وفتن طالت وأزمنت بينـه وبين الأدارسة انتهت أخيراً بانتصاره والانتقام منهم انتقاماً خسيساً فقتـل كثيراً وذبح كثيراً ومن أفلت منهم أجلاهم عن بلادهم وأخرجهم من ديارهم مغلوبين على ملـكهم مطرودين عن دار عزهم التى بناها أسلافهم وفروا بأجمعهم إلى قلعة [3] حجر النسر فتبعهم السفاح إليها وشدد عليهم الحصار وحاول استئصالهم والقضاء عليهم لولا تقريع رؤساء المغرب وأكابر دولته له إذ قالوا « أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين ؟ هذا شيء لانوافقك عليه ولا نتركك له » نخاف قولهم « ولا نتركك له » واعتبره تهديداً بالثورة عليه فارتحل عنهم لفاس وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي فى ألف فارس يمنعهم من التصرف [4]

وقد ذكر الامام المقّرى فى كتابه الـكنور أسماء جماعة من الأدارسة الذين فروا من قلعة حجر النسر لهذا الحصار المخنق الذى تركه عليهم ابن أبى العافية ، وذكر المواضع التى فروا إليها ، فكان من بينهم جد أسرة الإمام الملك يحيى بن عمران . ولفظ

(١) الاستقصا جـ ١ ص ٨٩

(٢) الأنيس المطرب جـ ١ ص ١٤٤ ط الوطنية

(٣) هى حصن شاهق منيع بـوماته قرب جبل العلم من المغرب الأقصى قال صالح بن عبد الحليم فى الأنيس المطرب بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس رضى الله عنه وقال ابن خلدون فى العبر اختطه كبير الأدارسة ابراهيم بن محمد بن القاسم .

(٤) العبر جـ ٤ ص ١٧ وجـ ٦ ص ١٣٥ — الاستقصا جـ ١ ص ٨١ الأنيس المطرب جـ ١ ص ١٢٢

المقرى : « ثم فر إلى زواوة الـكتانى أمير المؤمنين [1] يحيى بن عمران بن عبد الجليل بن يحيي بن يحيي بن محمد بن إدريس »

وما أن وطئ يحيى بن عمران هـذا تراب زواوة حتى بايعه أهلها ولقبوه بأمير الناس . يؤخذ هذا من كلام ابن جزى في مختصر البيان حيث عرف الـكتاني يحيي وهو يتكلم عنه بملك زواوة أمير الناس . ومن كلام المقري حيث نعته بأمير المؤمنين بل صرح ببيعة قبائل زواوة ليحيى العلامة الشريف الزكي المدغرى قال فى درته : خرج هذا الجد — يعنى يحيى — من فارس مع أبناء عمه واستقر معهم فى حجر النسر ثم انتقل إلى جبل زواوة حوز الجزائر فاراً بنفسه وبويع بذلك الجبل وسمى أمير الناس . ونقل عنهم هذا جماعة من متأخرى المؤرخين [2]

ويدل على وجود هذه الإمارة أو هذه الدولة التى لم أعرف من ملوكها غير يحيى بن عمران ما خلفت من معاهد وآثار فى القطر الجزائرى لا تزال ماثلة إلى اليوم مما لا يكون عادة إلا من أثر الملوك والدول . ومن هـذه الآثار مسجد سيدى الـكتاني بقسطنطينية ، قال عنه مؤرخ الجزائر الأستاذ احمد توفيق المدنى : هو من أجمل وأبدع مساجد القطر الجزائرى . ومنها مدرسة سيدى الـكتاني التى بجانب المسجد قال عنها المؤرخ المدني : ولا تزال إلى يومنا مدرسة علم [3] . وذكر فى النبذة أن لها أوقافاً وناظراً ومدافن لبعض أهل العلم

وبما سقت من النقول والأدلة على إمارة الـكتانى يحيي يظهر خطأ العلامة القاضى محمد الطالب ابن الحاج إذ يقول عنه فى كتابيه الأشراف ونظم الدر : وكان يعرف بأمير الناس مع كونه لم تتقدم له ولاية إذ لم أقف على من ذكره من الأمراء . وإذا علمت أن حجة القاضى بن الحاج فى نفي الامارة عن يحيى إنما هى عدم وقوفه على من ذكره من الأمراء علمت وهن هذه الحجة بوقوف غيره على من ذكره منهم كابن جزى الكلبي والمقرى والشريف المدغرى — وكلهم أقدم منه — وغيرهم ممن نقل كلامهم ؛ على أن قول القاضى : ولعل ذلك — يعنى شهرة يحيي بالـكتانى — لظهور الخباء من الـكتان أيام إمارة بعض أسلافه ما يشعر باضطرابه فى نفى هذه الامارة إذ المعروف عند كافة من أرخ للعائلة — وهم

(١) وفى نسخة أمير الناس

(٢) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٠٩

(٣) كتاب الجزائر ص ٢٣٣

كثير سيأتي ذكر بعضهم — أن يحيى هذا هو أول من استبدل خيام الصوف والشعر بالكتان أيام امارته هو لا إمارة بعض أسلافه كما يزعم ابن الحاج ويؤكده إجماع المؤرخين — وابن الحاج منهم — على أن يحيى بن عمران أول من لقب بالكتاني لهذا السبب

وفى بحر القرن السادس فى دولة السلطان المرشد عبد المؤمن ابن على الموحدى رحمه الله رجع أسلافه من زواوة إلى المغرب الأقصى واستوطنوا مدينة شالة [1] وقيل بل استوطنوا قبيلة بنى الحسن ، ووفق الامام فى النبذة بين القولين بأن قبيلة بنى الحسن كانت إذ ذاك من عمالة شالة فهى فى حكم المحل الواحد . وهو توفيق وجيه ، وتسمية الممالك باسم قواعدها استعمال شائع بين كل الناس منذ القدم ، ويجوّز فى النبذة أن يكون الراحل الأول من زواوة هو الشريف محمد بن عبد الله بن هادى بن أمير الناس الكتاني يحيى وأن يكون ولده الشريف أبا بكر حفيد حفيد الكتاني الأمير

وفى سنة ٦٥٦ أو ٦٥٤ كما ذكر جماعة من المؤرخين ، وقال الشريف [2] الفضيلى سنة ٦٦٦ أو ٦٦٤ انتقل أسلاف الامام رحمه

(١) ويسميها بعض المؤرخين بسالا القديمة موقعها على ميلين من البحر على ضفاف وادى أبى رقراق الذى يتصل بمدينة سالا الحديثة وهناك مصبه فى النهر ، يرجع تاريخ بنائها إلى عهد قديم جداً اختلفوا فيمن أسسها هل البربر سكان البلاد الأصليون ؟ أم الفينيقيون ؟ أم الرومان ؟ أم اسكندر ذو القرنين ؟ أم أفريقش الحميرى ؟ أم القرطاجنيون ؟ بكل قال جماعة واتفقوا على أنها بنيت قديماً إذ جاء وصفها عن الرحالين قبل الاسلام بنحو اثنى عشر قرناً تقريباً ووجد فى الحفريات الأخيرة من الآثار البربرية القديمة والفينيقية والرومانية ما يشهد لهذا القدم ، خربت فى عهد الوندال الكوطيين إلا ما اعتاص عليهم تخريبه وفتحها عقبة بن نافع الفهرى لما أتى المغرب للمرة الثانية سنة ٩٢ ، وعلى يده أسلم أهلها أولا ثم ارتدوا . وفى سنة ٩٠ فتحها موسى بن نصير وأجبر أهلها على الرجوع للدين الحق ثم ارتدوا وبقى أهلها فى أرجوحة بين الايمان مرة والكفر مرات إلى أن قيض الله لهم مجيء الفاتح الأكبر إدريس بن عبد الله المحض عليهما السلام ففتحها فيما فتح من مدائن المغرب عنوة فى القرن الثانى بعد أن أخرج منها دولة برغواطة الزنادقة وعلى يد إدريس هذا تفتحت أفئدة أهلها أخيراً لقبول نور الهداية والتوحيد كباقي بلاد المغرب

كان لشالة شأن فى دول الاسلام وقد استعملت لبعضهم كقاعدة للملك عمرت وخربت مراراً ، وفى سنة ١٢٠٥ تم خرابها — بفظائع وقبائح قال المؤرخ بوجندار : يخجل القلم لذكرها — على يد السلطان يزيد بن محمد العلوى قال بوجندار : ولم يبق اليوم من معالمها ومراسمها إلا ماصار مرعى للمواشي والدواب ووكراً للصدى والبوم والغراب

(أنظر كتابى شالة وآثارها ومقدمة تاريخ رباط الفتح)

(٢) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٠٩

الله من شالة إلى مكناسة الزيتون ، وأفاد مؤرخ لا أعرفه ! إن المنتقل الأول إلى مكناسة هو الشريف موسى بن أبي بكر بن محمد

واشتهر منهم بهذه المدينة علماء أجلة وفقهاء مهرة وعارفون كبار ترجم لبعضهم مؤرخ البيت المالك النقيب ابن زيدان في تاريخ مكناس

وفى آخر القرن التاسع [1] كما حقق الامام رجع من مكناس إلى فاس مدينة الآباء والجدود أول قادم منهم وهو الشريف محمد بن قاسم بن عبد الواحد ونزل بحى عقبة بن صوال وبقيت بها منهم فرقة انقرضت فى أواخر القرن الثانى عشر وهم أولاد الشريف احمد بن على بن احمد ولم تزل فاس عشهم إلى الآن سوى أفراد اختاروا السكنى بغيرها من مدن المغرب وآخرين طوح بهم الزمن إلى السنكال وصعيد مصر ودمشق

وكان أسلافه فى كل هذه المدن التى حلوا بها كقبائل زواوة وتلمسان [2] وضواحيها وشالة ومكناس الذروة والسنام لشهرتهم بينهم بالدين المتين والتقوى والعلم والفقه والشرف المتواتر

قال ابن خلدون فى مقدمة العبر عن شرف بنى ادريس — وآباء الامام منهم — إنه قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف

وقال العلامة القاضى محمد الطالب ابن الحاج فى نظم الدر واللآل : واشتهر هنالك — زواوة أولاده — الملك الكتانى يحيى — بصراحة الشرف ، وظهروا ظهور النار على الشرف . قال ثم انتقلوا من زواوة إلى بنى الحسن من عمالة شالة ومنها لمكناسة الزيتون وكان لهم فيها الصيت الشهير بصراحة النسب وعلو المكانة وعظيم الحظوة عند ملوك بنى مرين ، ومنها انتقلوا إلى فاس ومن لدن انتقلوا إليها وأهلها يعظمون قدرهم ، ويعدون فى المحافل فخرهم ، ويثبتون تواتر شرفهم ويتنافسون في مصاهرتهم ، ويتفاخرون بمجاورتهم ومصاحبتهم

« له بقية » **محمد المنتصر الكتانى**

(١) المعروف عند المؤرخين أن رجوعهم منها كان فى وسط القرن العاشر ، لكن الامام رد هذا بأدلة قطع بها

(٢) قال المؤرخ الشريف محمد بن أحمد الكتانى فى كتابه التنبيه إن الكتانيين فى عصره وهو العصر الثانى عشر سكنوا تلمسان وضواحيها فيما سكنوه من المدن ، وأضرحة بعضهم هناك مشهورة

في سبيل الإصلاح

بحث في الوظيفة والموظفين

للأستاذ علي الطنطاوي

الوظيفة في اللغة : مايقدر للرجل في اليوم من طعام أو رزق أو نحوه ؛ والوظيفة العهد والشرط ؛ والتوظيف تعيين الوظيفة ؛ والمواظفة الموافقة والمؤازرة

والوظيفة في العرف عمل يقوم به الرجل للمنفعة العامة ، (أي المنفعة المشتركة بين جميع الأفراد الساكنين في المكان القومي) ويأخذ عليه أجرة من الخزانة العامة

طبيعة الوظيفة ومنشؤها

البحث في منشأ الوظيفة يقتضي البحث في ظهور الحكومة لأنها مجموع الموظفين ، أو بالعبارة الثانية مجموع الأشخاص الذين يقومون بأعمال ضرورية لا تقتصر منفعتها عليهم وحدهم بل تمتد إلى الهيئة الاجتماعية التي يكون لهم عليها حق الطاعة والانقياد

وقد أكثر الباحثون من الكلام في منشأ الحكومة وظهر في ذلك كثير من النظريات أشهرها نظرية (العقد الاجتماعي) التي أثارها الفيلسوف الانكليزي هوبس Hobbes (١٥٨٨ — ١٦٧٩) واشتهر بها من بعد جان جاك روسو ، وكان لها أكبر الأثر في الثورة الفرنسية الكبرى ؛ غير انهـا سقطت الآن ، وأصبحت في رأي العلم أسطورة خرافيـة ، وأجمع العلماء على اطراحها ، لأن هذا العقد لم يوجد أبداً ، وهوبس ورسو وان اختلفا في المبدأ — فرأى الأول أن الانسان مفطور على الشر ، وأن الانسان ذئب الانسان Homo homini lupus واعتقد الثاني العكس — وان اختلفا في هذا فهما متفقان على أن الانسانية اجتازت دوراً طبيعياً مطلقاً من كل القيود ، قبل أن تدخل في الحياة الاجتماعية وتنشىء الحكومة ، وتلك فرضيـة باطلة . والحقيقة ان الانسانية لم تعرف هذه الحياة الطبيعية أبداً ، وانما عاشت من البدء حياة اجتماعية ساذجة تتمثل في القبيلة والاسرة والجماعة . وهـذا الذي يراه العلماء المحدثون مطابق لمـا جاء في الكتب السماوية

ولن نفيض في هذا البحث لأنه ليس من غرضنا تحقيق القال في منشأ الحكومة ، ولكن غرضنا عرض مسألة (الوظيفة والموظفين) عرضاً اجتماعياً ، وبيان صلتها بالحياة العامة ، لتعالج وينظر فيها في هذا العهد الذي تقف فيه مصر والشام وغيرهما من الأقطار العربية على مفترق الطرق تصفي حساب الماضي تصفية عامة ، فتبقى على الصالح وتلقى الفاسد . لذلك ندع الكلام في منشأ الوظيفة ، وننظر إليها نظرنا إلى (ضرورة اجتماعية) نشأت من ميل الانسان الفطري إلى الحياة الاجتماعية . وما ظهر في هذه الحياة من حاجات جديدة ليست حاجة فرد دون فرد ، ولكنها حاجة المجموع ، استلزم القيام بها انقطاع جماعة من الناس إليها تكفل لهم الناس بالمعيشة وعاهدوهم على الطاعة ليمكنوهم من انجاز عملهم الذي انقطعوا له ، على نحو مايفعل الذين ينتسبون إلى جمعية أو نادٍ أو شركة ، حين ينتخبون جماعة منهم يديرون الشركة أو الجمعية ويجعلون لهم راتباً معيناً ويعطونهم حق اتخاذ القرارات ويتعهدون بطاعتها وتنفيذها ؛ غير ان جماعة الموظفين أو الحكام لم تنشأ بعقد كهذا العقد ، ولكنها نشأت بالتدريج وبشكل طبيعي . والراجح انها كانت تستند في أول أمرها إلى القوة والطغيان ، وانها كانت إرادة طرف واحد ، هو الطرف القوي (الحكام) اضطر الفريق الثاني (الشعب) إلى قبولها والخضوع لها ، لأنه ضعيف ولأنه رأى وجود هذا الحاكم القوي الظالم أخف الضررين وأهون الشرين ؛ إذ لولاه لكانت الحالة فوضى وإذن يكون كل قويّ حاكماً على كل ضعيف ، فيكون بدل الظالم الواحد ألف ظالم

ثم تبدل هؤلاء الحاكمون الأقوياء على مر الأيام حتى استحالوا أخيراً موظفين خاضعين لنوع من الأنظمة والقوانين يختلف رقيها وشدتها باختلاف الممالك والبلدان

أما طبيعة هذه الوظيفة فليس لها شبيه في الحقوق الخاصة

وخير ما يمكن أن يقال فيها أنها تمثيل شخصية الدولة الحقوقية ، والتعبير عن إرادتها ، وقديماً كان يشبهها فريق من العلماء بالوصاية ، ويرون الحكام بمثابة أوصياء على الشعب ، ثم اتضح أن الوظيفة لا تشبه الوصاية بشيء ، وأنها أقرب إلى الوكالة . فساد الرأي

بأن الحكام وكلاء عن الشعب يقومون بأعمالهم بالنيابة عنهم ، ويعبرون عن إرادتهم ؛ بيد أن هذه الوكالة تحتاج إلى موافقة جميع الأفراد ، وهذا غير واقع ولا ممكن . فما هي طبيعة هذه الوظيفة إذن ؟

إنها كما قلنا من طبيعة خاصة لا شبيه لها في الحقوق الخاصة . « وغاية ما يستطاع أن يقال في هذا الشأن هو تشبيه الحكام — كما أشار إلى ذلك الأستاذ هريو Hauriou — بالمتبرعين بالعمل ، أي بأفراد يقومون بإدارة مصالح الدولة من دون أن يعهد إليهم بها من قبل جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة ، ولكن هذا التبرع يختلف عن مثيله في الحقوق الخاصة بأنه لا يحتاج إلى إجازة المتبرع له [1] »

وكون الوظيفة ضرورية يبرر هذا الوضع الشاذ للسلطة العامة ، أو هيئة الحكام أو الموظفين

حقوق الموظفين وواجباتهم

تبين أن تقسيم الهيئة الاجتماعية إلى طبقة الحكام (أعني الموظفين) والمحكومين (أي الشعب) ، وتكليف المحكومين بالعمل والكسب لإعالة الحاكمين ضرورة حيوية ، ولما كانت القاعدة في الضرورة أنها تقدّر بقدرها ، وأن لها أحكاماً خاصة ، وجب أن يمنح هؤلاء الحكام (أي الموظفين) أقل قسط ممكن من الحقوق ، لتخف أحمال الشعب ، وتقلّ أتعابه ، ويحملوا أكبر مقدار من الواجبات ، ليتحقق على أيديهم أكبر قسط ممكن من الخدمة العامة

أما أن يكون على الموظفين وجائب فأمر أساسي اقتضته طبيعة الوظيفة ؛ أما أن يكون لهم حقوق ، فأمر ناشيء عن تلك الواجبات ، يستحيل قيامهم بها دون الحصول على هذه الحقوق .

وأول الواجبات في الوظيفة أن تكون الغاية من إحداثها تحقيق منفعة عامة ضرورية لا يستغنى عنها ولا يمكن تحقيقها إلا بإحداث هذه الوظيفة ، وبغير هذا الشرط لا تكون الوظيفة مشروعة ، بل تكون شكلاً من أشكال الاستبداد كما لو أحدثت لمنفعة شخص أو لإرضائه ، أو لتأمين مصلحة خاصة لحزب من الأحزاب ، أو جمعية من الجمعيات السياسية

وثانيها أن يختار من الأشخاص أقدرهم على تأمين هذه المنفعة وأن يراعى في اختياره الكفاية الشخصية والمواهب الذاتية ، لا الأسرة ولا اللون الحزبي ولا الشفاعات .

ولهم بعد ذلك حق الطاعة على الرعية من غير أن تحتاج عقودهم وأعمالهم ومقرراتهم إلى المصادقة الفردية من جميع المحكومين أو تحتاج إلى حكم قضائي . يؤيد ذلك اعتبار الحكام (الموظفين) منتخبين من قبل الشعب ، وحائزين لثقته ، وأنهم (لما هم عليه من الصفات والمزايا) أقل خطأ من سائر الأفراد ، وأنه لو أعطي الأفراد حق الاعتراض على كل العقود العامة وإقامة الدعاوى دائماً لأدى ذلك إلى الفوضى وعرقلة سير القضايا العامة وضياع المصلحة التي من أجلها أوجدت الحكومة

وبديهي أن حق الطاعة لا يكون للحكام إلا إذا اتبعوا الدستور وساروا على القوانين والعادات المرعية

ومن حق الموظفين الذين انقطعوا عن الكسب لأنفسهم وعن تأمين مصالحهم الخاصة أن تؤمن هذه المصالح من قبل الدولة وأن يمنحوا بعض الامتيازات ، ويتمتعوا ببعض الحصانات .

أي أن للموظف قبل كل شيء أن يأخذ راتباً من خزانة الدولة ولكن كيف يقدر هذا الراتب ؟ وما هو الأسلوب الصحيح لتعيين مقداره المشروع ؟

جاء في البخاري عن عائشة : « أن أبا بكر رضي الله عنه لما استخلف قال : لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مئونة أهلي وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال »

وكان الذي فرضوا له برديه إذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما ، وظهره (دابته) إذا سافر ، ونفقته على أهله ، كما كان ينفق قبل أن يستخلف ؛ فرضي بذلك [1]

وهذا الأسلوب طبيعي ومقبول ، ولكنه شخصي لا يصح اتخاذه قاعدة عامة ، لأنه يؤدي إلى الفوضى ، ولا يجعل للرواتب أسلوباً معروفاً ، ولا أصلاً ثابتاً ، ثم إن فيه حيفاً على الموظفين المقتصدين الذين كانوا يعيشون قبل الوظيفة عيشة ضيقة أو النابغين المفلسين الذين لا يجدون قبل الوظيفة ما ينفقون ، كما أن فيه منفعة للمسرفين وتشجيعاً لهم على إسرافهم . وقد يرد هذا الاعتراض

(١) عن الأستاذ ج ستيف في كتابه الحقوق العامة الشاملة

(١) أبو بكر الصديق للطنطاوي ص١٩٩

الأخير بأن الموظف لا يعطىَ إلا ما فيه تأمين حاجاته الضرورية ، غير أن في ذلك ظلماً للموظف ظاهرا

فما هي القاعدة المقبولة إذن في هذه الرواتب ؟ ...

هي أن يعطى الموظف أقل بقليل مما يستطيع أن يحصله من العمل الحر ، أو ما يحصله رجل مكافئ له في المواهب والسجايا والكفاءة من عمل مشابه لعمله ؛ وهذا تقدير معقول دائم الاعتبار يختلف باختلاف البلدان والشعوب ، وغناها وفقرها ، ورقيها وانحطاطها ، وكون ما يعطاه الموظف أقل بقليل مما يستطيع تحصيله في العمل الحر ، ناشئ عن فكرة الدوام في الوظيفة بالنسبة للعمل الحر والراحة والاطمئنان فيها ؛ فالتاجر لا يضمن لنفسه مقداراً من الربح كل شهر ، كما تضمن الدولة للموظف راتبه ، والتاجر مهدد بالإفلاس والضياع ، وليس على الموظف شيء من ذلك . ثم إن الدولة توفر للموظف من راتبه قسطاً كبيراً يكفيه ويغنيه أيام مرضه وتقاعده عن العمل ، والتاجر موكول إلى نفسه

وللرواتب ضابط آخر هو ألا تزيد نسبتها في الميزانية العامة عن الخمس (عشرين في المائة) وهذا طبيعي لأن الغاية من الحكومة ضمان المنفعة العامة ، وهؤلاء الموظفون وسيلة إلى هذه الغاية . أفيعقل أن تكون الوسيلة غاية ؟ أيعقل أن يأخذ الأعضاء الإداريون في الشركة نصف الأرباح ؟ كذلك لا يعقل أن يأخذ الموظفون نصف موازنة الدولة رواتب لهم

***

وقبل أن ندع الحديث عن وجائب الموظفين وحقوقهم نعرض هذه المسألة : هل الموظفون عمال يقومون بعمل بعينه ثم إذا وفوه كانوا أحراراً في أوقاتهم وأعمالهم ، أم هم مقيدون خارج الوظيفة ببعض القيود ؟ وبالعبارة الثانية : ما هي علاقة الأخلاق والسلوك بالوظيفة ؟ لا أعني التفكير والاتجاه السياسي أو العمل الأدبي ، فإنه لاخلاف في أن للموظف أن يفكر كما يشاء أو يعمل أي عمل علمي أو أدبي أراد ، ويأتي كل ما يجيزه القانون لغيره من الأعمال العامة (١) ولكن أعني السلوك الشخصي ، وأكثر الناس على التفريق بين الأخلاق الاجتماعية ، كالصدق والأمانة والأخلاق الشخصية كالعفاف فلا يرون ما يمنع الموظف إذا كان أميناً على أموال الدولة ، قائماً بما أسندت إليه من عمل أن يسلك سبيل اللهو ، وينتهز اللذات ، ويلبي صوت نفسه وجسمه ، ولا يرون ذلك قادحاً ، ولا يجدون له صلة بالوظيفة

وهذا الرأي باطل كل البطلان ، لاسيما في بلاد كبلادنا لا يزال الناس ينظرون فيها إلى الموظف (والموظف الكبير على التخصيص) نظرة إجلال وإكبار ، ويتخذونه قدوة ويسلكون مسلكه ، وقديماً قيل : الناس على دين ملوكهم ، فاذا فسد الموظفون فسدت الأخلاق العامة ، ثم إن من الوظائف ماله علاقة ماسة بالأخلاق وما ينبغي في صاحبه الكمال حتى يكون في نظر الناس سالماً من الشوائب منزها عن المعايب كوظائف المعارف (التعليم) والعدلية (القضاء) ، جاء في الحديث : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . فما ظنك بمدرس يقوم في النهار واعظاً معلماً ، يوفى التبجيل ، يكاد يكون رسولا ... فاذا كان الليل اجتمع هو وتلميذه في الحانة أو الماخور ، أو اجتمع معه على باطل ... وما ظنك بمفتش يدخل الصف على المدرس ، ممثلا القانون والأمة والدين ، يراقب ويسجل ويكون لقراره صفة التقديس فلا يرد ولا يكذب ، وتكون مقدرات المدرس معلقة به ، ماظنك بهذا المفتش إذا ذهب في المساء يؤم الحانات أو يطرق أبواب المعلمات ... أو يأتي المنكرات ؟ وقل مثل ذلك في القاضي ، بل ربما كان احتياج القاضي إلى الكمال ، في كل أحواله ، وفي كافة أموره ، أشد من احتياج المعلم ، لأنه يجلس مجلس الأنبياء ، ويقوم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك عنيت القوانين الشرعية ، بأخلاق القاضي فلم تكتف بالعلم ، وإنما اشترطت فيه بعض الشروط الأخلاقية ، فأوجبت فيه أن يكون حكيما فهيما مستقيما أميناً مكيناً متيناً (مجلة — مادة : ١٧٩٢) وقيدته ببعض القيود فألزمته اجتناب الأفعال والحركات التي تزيل المهابة (مادة : ١٧٩٥) ومنعته من قبول هدية الخصمين أبداً (١٧٩٦) ومن الذهاب إلى ضيافة كل من الخصمين قطعاً (١٧٩٧) الخ

فياحبذا لو عمل بهذه الأحكام ، ووضع مثلها للمدرسين ورجال المعارف خاصة ، وللموظفين عامة

(١) أنظر في العدد ١١١ من (الرسالة) مقالي «الوظيفة والموظفون» الذي وجهته إلى وزير معارف سورية يوم كنت معلماً ابتدائياً في وزارته ... فقد أوضحت فيه هذه المسألة وعقدته على بيانها

وقد يعترض معترض بأن هـذه قيود لايجوز أن يقيد بها الموظف ، بل يجب أن يتمتع بحريته كما يتمتع بها كافة الناس ، والجواب أنها قيود حقيقة ، ولكنها ضرورية لتأمين الغاية من وجود الموظفين ، وهى المنفعة العامة ، فاذا كانت هذه القيود شاملة الموظفين ، وإذا دخلوا فى الوظيفة على معرفة بها ، لم تعد قيوداً اضطرارية وإنما تكون بمثابة شرط اختيارى ، ثم إن فى امتيازات الموظفين وحقوقهم التى يمتازون بها من سواد الشعب ما يبرر تقييدهم ببعض القيود اللازمة

تعيين الموظفين

درسنا الوظيفة على أنها ضرورة حيوية ، الدافع إليها والغاية منها المنفعة العامة ، وأبنا أن الواجب فى اختيار الموظفين ، ملاحظة قدرتهم على تحقيق هـذه الغاية وكفاءتهم للقيام بها ، وهذا هو الحق الذى يقضى به العقل والنقل ، جاء فى الحديث عن ابن عباس[1] : من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وفى الحديث [1] عن يزيد بن أبى‌سفيان قال : قال لي أبوبكر الصديق حين بعثني إلى الشام : يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا حتى يدخله جهنم .

وكان الشأن فى المسلمين الأولين أنهم يفرون من الولاية ويخشونها ، ولا سيما القضاء فربما عرض عليهم فأبوا ، فنالهم أذى فصبروا واحتسبوا ولم يقبلوا . وحديث الأئمة فى هـذا الباب أبي حنيفة ومالك وغيرهما مشهور معروف ، والأحاديث فى التنفير من طلب الوظيفة كثيرة جداً حتى عقد لها الحافظ عبد العظيم فى (الترغيب والترهيب) باباً مستقلاً . جاء فى الحديث الصحيح (الذى رواه الشيخان البخارى ومسلم) عن عبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فانك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها

وروى أبو داود والترمذى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وكل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده

وروى مسلم وأبو داود عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : يا أبا ذر : إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها

وكان النبي صلى الله عليـه وسلم لايولى أحداً حرص على الولاية أو سألها . جاء فى الحديث (الذى رواه البخارى ومسلم وأبو داود) عن أبى موسى . قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بنى عمى ، فقال أحدهما : يارسول الله ، أمرنا على بعض ماولاك الله تعالى . وقال الآخر مثل ذلك . فقال : إنا والله لانولى هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه

* * *

هذا هو الأصل فى تعيين الموظفين ، يختار الأصلح للعمل ، الأقدر عليه وهو مقيم في بيته ، ويحتال عليه بالاقناع وبالتهديد حتى يقبل مكرهاً ، فانتهى الأمر عندنا إلى مايعلمه الناس كلهم ، وأصبحت تعرض المائة من الموظفين فلا تكاد تجد اثنين من أهل الكفاءات ، وإنما تجد من أدخلته الوظيفة شفاعة شفيع ، أو جاه وسيط ؛ وخير شفيع اليوم « شفيع النواب » [1] وخير وسيط « الأصفر الرنان » أو غير ذلك مما يعلم ولا يقال ، وما فى قلب كل قارىء منه غصة ، وما يحفظ منه كل قارىء حوادث وأخباراً . . .

الموظفون فى بلادنا

وما دمنا في الحديث عن بلادنا ، وما دامت غايتنا الاصلاح فلنصور الداء كله . . .

قدمنا الكلام فى أن الوظيفة ضرورة تقدر بقدرها وأن عدد الموظفين يجب أن يكون معلقاً بالمنفعة العامة ، فلا يقل عن العدد اللازم ، كيلا يحمل الموظفون مالا طاقة لهم بحمله فتتعطل

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد

(١) قال الفرزدق : ليس الشفيع الذي يأتيك متزراً . . .

المصلحة ، ويقف دولاب العمل ، ولا تزيد حتى يرهق الشعب ، وأن نسبة الرواتب يجب ألا تتجاوز خمس الموازنة وأن ينفق الباقى على المصلحة ذاتها كما ينفق جلّ أرباح الشركة على المنفعة العامة للأعضاء كلهم ، لا على منفعة مجلس إدارتها القائم عليها

على حين أننا نرى فى بعض هذه البلدان العربية بلداً يأخذ موظفوه خمسة أسباع الموازنة ($\frac{5}{7}$) وينفق سبعان فقط ($\frac{2}{7}$) على المصلحة ذاتها . . . أليس معنى هذا أن الشعب كله أصبح خادماً لهذه الفئة ، بدل أن تكون هى خادمة له ؟ وأن غاية الوظيفة حياة الموظفين وسعادتهم لا المنفعة العامة الضرورية ؟

وقدمنا بأن حد الراتب أن يكون أقل بقليل مما يحصله الموظف فى العمل الحر على حين أن الراتب عندنا يزيد أضعافاً مضاعفة على ما يحصل من العمل الحر . بل لا نسبة بينهما مطلقاً وقد نشأ عن ذلك أن كان عندنا طبقتان طبقة مترفة سعيدة هى طبقة الموظفين ، وهى الأقل عدداً ، وطبقة مرهقة متألمة شقية هى طبقة جمهور الشعب . وإنى لأقول (عن استقراء وبحث) إنه ليس في المائة ممن أعرف من الموظفين اثنان أو ثلاثة يستطيعون إذا أخرجوا من وظائفهم ، تحصيل نصف الراتب أو ربعه من العمل الحر ، ذلك أن علو الوظائف وكثرة الراتب لم تكن قائمة على الكفاءة ، بل مر وقت كانت تقاس فيه كفاءة الموظفين بمقدار اتصالهم بالأجنبى المسيطر وتزلفهم إليه . فنشأ عن هذا أن اتسعت الهوة بين الشعب والحكام (أى الموظفين) . وحمل لهم الشعب فى نفسه أشد البغضاء ، وأمر النقمة ، حين رأى المئات من المكلفين لا يقوم ما يدفعونه كلهم من الضرائب ينتزع انتزاعاً من أفواه عيالهم وأعناق بناتهم — لا يقوم براتب موظف واحد كبير . وحين رأوا فى القانون خروقاً كثيرة يسقط منها المال على الموظفين الكبار ، فيأخذونه بلا ورع ولا حياء من أجور سفر إلى تعويضات إلى غير ذلك مما أضرب عليه مثالا واحداً شاهدته بعينى فى إحدى البلدان العربية : جاء مفتش للغة الانكليزية من داره التى لا تبعد عن المدرسة أكثر من خمسمائة متر ماشياً على رجليه ، فلبث فى المدرسة نحواً من نصف ساعة ، ثم ذهب لشأنه فعلمت علم اليقين أنه قدم إلى الوزارة القائمة الآتية (مصروفات تفتيش) :

قرش	صاغ
٤٠	أجرة سيارة (من أقصى المدينة إلى المدرسة)
١٠	ثمن أوراق وأقلام للتفتيش
٣٠	ثمن غداء ومصروفات متفرقة
٨٠	المجموع

فأخذ ثمانين قرشاً (وهى اليوم أكثر من مائة فرنك) ولم ينفق منها فلساً واحداً

الوظيفة فى بلادنا قد خرجت عن الأصل الذي قررناه فى أول هذه المقالة ، فلم تعد ضرورة حيوية ولم تعد غايتها المصلحة العامة ، بل أصبحت باباً للكسب وطريقاً إلى المعيشة وأصبحت قبلة الناشئين وهدفهم ، لا تخلو وظيفة إلا أقدم عليها المئات من الشباب المتعلمين ولو كانت وظيفة عامل بريد أو كاتب ديوان ولو كانوا ليسانسيين ودكاترة ، وتوصلوا إلى رضا الرؤساء (وأكثرهم من بقايا العهد البائد) بشتى الوسائل الباطلة والطرق الدنسة الملتوية ، ثم اذا فاز منهم من فاز ثابر على إطاعتهم لأن بقاءه معلق بهم ورقيه موقوف على رأيهم ؛ وإذا كان هذا الفائز فى الوظيفة شريفاً ، أو كان على بقية من المبادئ التي تلقاها فى المدرسة ، وأحب أن يعيش فى الوظيفة بإخلاص وشرف واستقامة ، ذاق الأمرّين وأصلاه الرؤساء حرباً حامية ، حتى يَخرج أو يُخرج غير مودّع ولا مأسوف عليه

ضاع الشرف واضمحلت الأخلاق ومات النبوغ فكم من نابغ موهوب وعبقرىّ نادر دفن نبوغه وعبقريته فى وظيفة خاملة. الوظيفة في بلادنا خصيمة النبوغ . هذا الرافعى الذى لم ينشأ فى العربية فى كل عصورها كاتب أبلغ منه عاش ومات كاتباً فى محكمة صغيرة ، وهؤلاء الجاهلون فى أرفع وظائف المعارف ، والظالمون فى أعلى درجات القضاء ...

إن مسألة الوظيفة عقبة من أشد العقبات فى طريق هذه الشعوب العربية الناهضة ، فيجب أن ينظر إليها ويبحث فيها ، ويوليها الكتاب والمفكرون وأولو الأمر والحكام الوطنيون أكبر العناية ، ويحلونها من الاهتمام فى أرفع مقام

علي الطنطاوى

من وحي «الشجرة الضالة»

على طريقة الشعر المنثور

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

أتدرين لماذا أحبك أيتها الشجرة القديمة

التي اشتركت جذورها مع جذور الزمان ...

لا أحبك لأنك قوية عالية المناكب غليظة الجذع ، ولا أحبك لكهولتك التي لا تزال تتدفق بالحياة كالشباب ، ولا أحبك لأنك رمز القدم ...

أحبك لأمر واحد وأحب معه كل قديم من أجله ...

لأن فى القديم شيئاً من حيواتى الغابرة التى لا أعيها ...

وربما كان لى عين إلى أعماقك !

وربما كان لى ثغر فى عروقك ...

وربما رأيت الحياة بك مرات كثيرة ...

إنك أقدر على تفسير اللاشعور فى نفسى من نفسي ...

— ٢ —

ما أضل أولئك الذين يظنون انهم استطاعوا ان يقولوا : « قد وجدنا ما أضعنا »

أيستطيعون أن يتمثلوا ما أضاعوا حتى يجدوه ؟

لو كان الشيء الذى أضعته واحداً لقلت :

ما أهون الأمر !

ولكنى أضيع كل يوم شيئاً ولا أجد هذا الشيء ...

وشقائى أنني كلما ذهبت أفتش عن هذا الضائع ، أضعت معه شيئاً آخر كان معي !

فحياتى أشياء ضائعة ، وسعي ضائع وراءها .

فأين تريدون أن أجد أجزاء نفسى التي تناثرت منى على طريق العمر ؟

وبينا كنت أحمل هذه الأجزاء كعوامل لسعادتى وحياتي أمسيت أحملها ذكريات ثقيلة

هل بامكانى أن أطرح هذه الذكريات عنى كما تطرحين أيتها الشجرة هذه الأوراق البالية عنك كل خريف ؟

أتعاودك ذكرى الأوراق المتساقطة بعد أن يكسوك الربيع سواها ؟

فاذا لم تعاودك ذكرى الورقة الأولى فلماذا تعودين إلى إبداع الورقة الجديدة — كل ربيع — على مثال الورقة الأولى ؟

أليست الورقة الأولى هى مصدر إلهامك ومدار حياتك ؟

وحقك ! أينما رأيت أوراقك قلت : هذه الورقة الأولى !

دعينى إذاً أفتش فى هذه المسارب قبل أن تغمض عيناى ..

لأقول : هنا سحبت قدميها مرة ، ففي هذا المكان جزء منها فلأحاول أن أوقظ هذا الجزء ...

وأقول : هنا جلسنا ذات يوم وضحكت لنا الحياة . فلأحاول أن أستعيد هذه الضحكة من الآن من التى طوتها

وأقول : هنا تركت بقية منها لم تعد تحملها نفسها ولا يجدها أحد سواى . فلأجرب أن أستنقذ هذه البقية من النسيان !

وأقول : هنا يعبق الجو بأشذاء وعطور من جسدها يوم كان يتفتح للمياه كالزهرة ، فلأجرب أن أغمر روحى بهذه الأشذاء وهذه العطور .

وهنا يطفح المكان بألوان محاسنها التى تحولت ... فلأعمل على إحياء هذه الألوان الباهتة .

وهنا ألمس أشياء كثيرة ! أحسها ولكني لا أقدر أن أمسكها لأنها أفلتت منى كما أفلتت منها ...

دعينى إذاً أفتش عن أجزاء نفسى فى كل مكان ، قبل أن يطوينى الزمان .

— ٣ —

أيها الزائر لحدي — هنا — لا تكثر التأمل فى الأرض حيث ذرات جسدى تقيم لأنك لن تجدنى هناك ...

ولكن تأمل فى الشجرة التى تغمرنى ظلالها وتحنو على أغصانها وتشدو لي أطيارها

إنك تجدنى فيها على كل ورقة تتحرك ، وفى عصارة كل عود يرتجف ، وتسمع همسى فى كل خشخشة منها !

أنا ميت فى الأرض ، وحى فى الشجرة .

خليل هنداوى

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٣ —

الفلسفة الصينية

أخلاق العصر الأول أو الفلسفة العملية

أشرنا في الفصل السابق إلى أن فلسفة الخاصة لم تتأثر ألبتة بأفكار العامة ولم تحمل أى طابع من طوابع العقلية الشعبية ونجزم هنا بأن عكس ذلك هو الذى وقع أى أن العامة هى التى تأثرت بفلسفة الخاصة، ولكنه تأثر أخلاقي فحسب، وإنما نقول فحسب، لأن فلسفة الخاصة النظرية ليس لها على عقيدة العامة إلا آثار طفيفة لا تكاد تذكر، فبينما نرى فلسفة الخاصة تعجز عن رفع الجماهير إلى الايمان بـ « شانج — تى » وهو السلطان الأعلى نشاهد فلسفتها العملية تسود الشعب كله خاصة وعامة، بل وتلون عقيدة الجمهور بذلك اللون الأخلاقي الراقي

نحن نعلم أن الصينيين كانوا يرون أن السماء كائن متحرك تبعاً لقانون منظم، وهذا القانون يربط القوى الثلاث : السماء والأرض والإنسان ربطاً محكما ، وإن كان لكل واحدة من هذه القوى فى الظاهر طريق خاص أو غاية مقصود تحقيقها . فغاية السماء تسمى : « تيانْ تَاوْ » . وغاية الأرض تسمى : « تُوتَـاوْ » . وغاية الإنسان تسمى : « جين تاو » إلا أن هذه الغايات ليست في الحقيقة إلا غاية واحدة ، وهى غاية العالم أو قانون الطبيعة أو واجب الموجودات

لهذا الارتباط المحكم بين تلك الغايات الثلاث أثره العميق فى كل شئ ، إذ لا يكاد اضطراب بسيط يحدث فى أحدها حتى يتردد صداه فى جميع جزئيات الآخرَين ، فمثلا إذا حاد الإنسان عن الطريق السوى ، فاقترف جريمة من الجرائم حدث فى الحال اضطراب فى السماء والأرض ، وليس الكسوف والخسوف والزلازل وظهور الكواكب ذوات الأذناب والجدب والأوبئة ليس كل ذلك إلا نتائج جرائم الانسان وحيدته عن الطريق المستقيم ، فاذا ماحدث فى السماء هـذا الاضطراب الناشئ من سلوك الانسان وأعقبه اضطراب الأرض عاد الأثر من جديد إلى السماء فتضاعف اضطرابها . ولهذا تقول « أونج فان » أو القاعدة العظمى ، وهى أقدم مستند فلسفى صينى : إن سلوك احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث فى الوقت المراد والتبصر يجلب الحرارة فى الوقت المراد والتمرن على التأمل يجلب البرودة فى الوقت المراد ، وحكمة الملك تجلب الهواء فى الوقت المراد ، ولكن الفظاظة تديم المطر من غير انقطاع ، والكسل يديم الحرارة من غير انقطاع ، والتهوس يجلب البرد من غير انقطاع ، واحتقار مايستحق الاحترام يجلب الجدب ، والحماقة تجلب العاصفة »

وإذا رأينا أن الصين يربطون المظاهر الطبيعية بالفضائل والأخلاق إلى هذا الحد ، استطعنا أن نجزم بأن الواجب هو الذى كان له القيادة العليا فى هذا الشعب ، وبأن كل فرد كان يحاول بقدر طاقته أن يكون فاضلا حتى لا يكون مجلبة للوباء أو للجدب فتشقى بسببه الأمة جمعاء ، ولكن الفضيلة عندهم لم تكن تتحقق بعمل أو ببضعة أعمال خيرية وإنما هى كمال الخلق وتحقيق الاستنارة التامة للنفس ، واتباع الصراط السوى فى كل شىء ، ذلك الصراط الذى هو موجود بالفطرة لدى كل روح بشرية والذى هو برهان احترام النفس الانسانية وارتباطها بالسماء.

وأكثر من ذلك أن المستَصْينين الذين اشتغلوا باللغة الصينية عثروا فى دراساتهم على أن كلمة : « تاو » التى هى الطريق المستقيم أو الغايةُ المثلى لكل الكائنات أو تحقيق الواجب تدل أيضاً على نصيب الانسان الممنوح له من السماء ، وهذا برهان آخر على ارتباط الفضيلة والواجب بحظ الانسان فى الحياة عند هؤلاء القوم .

وعند الصينيين أن الانسان خيّر بفطرته ، لأنه جزء الطبيعة والطبيعة هي الإله ، ولكن الانسان ليس مجبراً على اتباع طبيعته الخيرة دائماً مثل النبات أو الحيوان ، وإنما هو كائن مفكر له كسب واختيار قد يبعدانه أحياناً عن الصراط السوى الذى هو صوت السماء أو صوت الطبيعة . أما الخير الموجود فى نفسه ،

فليس كامل التكوين ، وإنما هو موجود على هيئة استعداد فقط وعليه هو أن يحققه حتى تصبح الفضيلة طبيعة عملية له .

وهنا أحسب أنى لست فى حاجة إلى التنبيه إلى أن الصينيين قد سبقوا الرواقيين إلى هذه النظرية بعدة قرون حيث قرر هؤلاء الأخيرون أن الانسان هو جزء الطبيعة التى هي الإله ، وأنه خير بفطرته ، وأن الشر لا يقع منه إلا إذا حاد عن طبيعته ، وأن هذه الحيدة لا تأتيه إلا من التفكير وحرية الاختيار .

وعلى ذكر حظ الانسان الذى تمنحه إياه السماء ينبغى لنا أن نشير هنا إلى أن القدر كان عند الصينيين على نوعين : الأول هو الأقدار الناشئة عن أفعال الإنسان نفسه ، وهذا النوع لا يمكن تعديله أو التغيير فيه . والنوع الثانى هو الحظ الذى تبدأ السماء بتوزيعه على الإنسان ، وهذا يمكن تلطيفه أو تحويل شره إلى خير كما ينص على ذلك كتاب « شو — كينج »

رفع الصينيون إلههم إلى أسمى آواج الكمال الخلقى فنزهوه عن الظلم وعن الاستثناء (المحسوبية) فمن المستحيل مثلاً أن ينزل بالبشر الآلام والأرزاء اتباعاً لهواه ، أو أن يطرد من رحمته إنساناً لم يجرم ، أو أن يعفو عن آثم لم يقلع عن إثمه كما كان يفعل آلهة البابليين والعبرانيين ؛ وإنما هو إله فاضل يمنح النعمة والسعادة للأخيار ، ويقسو إلى أقصى حدود القسوة على المجرمين والأشرار . وفى هذا يقول كتاب « شو — كينج » ما نصه . « إن الفضيلة وحدها هى التى تؤثر فى السماء ، وإنه لا يوجد أمام الفضيلة ألبتة شئ بعيد بحيث تعجز عن اللحوق به ، وإن المتكبر منخفض ، والمتواضع مرتفع ؛ فإذا لاحظت ذلك ، فإنك ستسير على صراط السماء ... »

من الفضائل الهامة التى نصت عليها الأخلاق الصينية الرحمة التى تجب للصغير على الكبير ، وللضعيف على القوى ، وللفقير على الغنى . ويحدثنا أحد العلماء بأن الآية الموجودة فى الانجيل فى هذا الصدد موجودة بنصها فى أقدم الكتب الصينية وهى : «إنما السعداء هم الرحماء» راجع الانجيل وكتابى «شو — كينج» و « إى — كينج »

ومما لا شك فيه هو أن الفلسفة العملية الصينية لم تكف لحظة عن مهاجمة العنف وعن الأمر بالرحمة فى المعاملات ، بل وعن إفهام الأقوياء والأغنياء أن الضعفاء والفقراء خير منهم ؛ وأن هذه الخيرية سر غامض كامن وراء هذه المظاهر السطحية الخداعة من غنى وقوة وجاه . ومن هذا ما يقوله كتاب «إى — كينج» : « إن الهواء الذى يصفر فى السماء إنما هو تصوير لقوة الرجل الذى يظهر صغيرا ، وإن الرجل الذى يمشى فوق ذيل النمر دون أن يعضه هو الذى سينجح ، وإن التواضع يخلق النجاح ، وإن الحكيم المتواضع يستطيع أن يجتاز البحر الأعظم »

ويعلق أحد الباحثين على هذا بقوله : ولكننا يجب علينا ألا نفهم أن الرحمة التى تدعو إليها الديانة الصينية هى الرحمة التى تجر إلى الضعف ، وإنما هى الثبات فى وداعة والصلابة فى تحقيق الواجب . وعلى الجملة هي المقياس المضبوط في كل شئ أو هى الاعتدال أو التوسط فى كل شئ ، وهذا التوسط كانوا يسمونه : « تشونج » أى الفضيلة فى ذاتها ، وفيها يقول « إى — كينج » : « إن احتمال فظاظة الأفظاظ فى وداعة ، واختراق الأنهار فى ثبات وشجاعة ، وعدم إهمال البعيد ، وعدم الانشغال بالغير ، كل هذا مجتمعاً هو الذى يحقق السير فى طريق الاعتدال الأوسط »

وهناك نص يعد من أقدم نصوص كتاب «شو — كينج» يقول : « إن الفضائل التى تصيّر الانسان غاية فى الكمال : هي المتنونية مع الجد ، والتخلى مع الثبات ، والحشمة مع البساطة ، والحزم فى السلطان مع الحكمة ، وسهولة الانقياد مع القوة ، والصلابة فى الاستقامة مع الوداعة ، والرحمة مع التمييز ، والشدة مع الإخلاص ، والشجاعة مع العدالة . فإذا اتبع رعاياك هذه المحامد ، فإنهم سيكونون مستقيمين فى الطريق السوى »

من خلال هذا كله نلمح فى سهولة أن الأخلاق الصينية قد أقيمت منذ أقدم عصورها على أساسين جوهريين : الأول المثالية العليا والثانى سعادة المجتمع . ويعلق العالم « زانكير » على هذا بقوله : ولقد فهم بعض الباحثين أن الأخلاق الصينية نفعية جافة فظة . وفى الواقع أن النظرة السطحية المتسرعة فى فلسفة الصينيين لابد أن تنتج هذه النتيجة ، إذ لا يكاد الباحث يتصفح كتبهم حتى يلتقى فيها بقاعدة « الفضيلة طريق السعادة » أو « السعادة غاية الفضيلة » . فإذا كان الباحث من أولئك الذين لا يكلفون أنفسهم التعمق جزم بنفعية هذه الأخلاق ، بل بأنانيتها

ولكن نظرة فاحصة ، وتأملة دقيقة ، تظهران أن هـذه السعادة المقصودة ليست هى سعادة الفرد ، وإنما هى سعادة المجتمع ، وليس ذلك النجاح الموعود به لمكافأة الفضيلة هو نجاح الشخص ، وإنما هو النجاح فى تحسين أحوال البيئة العمرانية التي يقيم فيها الفضلاء. وفى الحق أن الأثرة عند الصينيين من أقبح الرذائل ، وأن الغيريّة أو الايثار فى رأيهم من أجل الفضائل ، وأن الفضيلة بوجه عام تنحصر في الخضوع الحر الذى يصدر من الفرد نحو مجتمعه صدوراً إدارياً ، لأن ذلك المجتمع الممثّل فى أوامره الحية إنما هو عندهم صور أمينة للأوامر السماوية . وهكذا نرى أن القانون والحرية هما الدعامتان الجوهريتان للأخلاق الصينية ، وفوق ذلك فهما تذكراننا بعبارة « كانت » القيمة ، وهي : « إن السماء التى تسطع نجومها فوق رأسى هى عين القانون الأخلاق الذى فى داخل نفسي »

نظام الأسرة

كان لرب الأسرة فى الصين كما كان فى روما حق الحياة والموت على جميع أفرادها بدون استثناء ودون أى تذمر أو اعتراض، ولكن بقدر ماكان أرباب الأسر فى روما قاسي القلوب متحجرى الأكباد لا يبالون بتضحية فرد أو عدة أفراد فى سبيل هوى من الأهواء أو شهوة من الشهوات . كان رؤساء الأسر فى الصين على العكس من ذلك تماماً تفيض الرحمة من قلوبهم ، وينبع الحنان من بين جوانحهم ، ولا يسلكون مع جميع أفراد أسرهم إلا سبل العدالة والاستقامة ، ولا يتخذون فى معاملاتهم إياهم رائداً غير الفضيلة ، وإن كانوا لايتوانون لحظة واحدة فى اتخاذ أقسى أنواع الحزم إذا تطلبت الحالة الاخلاقية أو الاجتماعية ذلك . أما واجبات المرءوسين نحو رؤسائهم فى الأسرة من احترام واخلاص وطاعة فإننا نكتفى بما أشرنا إليه منها عند حديثنا عن الأخلاق العامة .

السلطان

تنتقل السلطة إلى الملك عنـد الصينيين من السماء مباشرة ، ولهذا يجب أن يكون فاضلاً ، مستقيما ، حكيما ، بل قديساً منزهاً عن النقص ، لأنه الابن الحقيقي للسماء ؛ وليست البنوة المادية هي المعتبرة ، بل إن الاصطفاء المعنوى هو كل شيء ، وإن منحة السماء لا تتوقف على جاه ولا مولد ، وفى هذا يقول « شو — كينج » : « إن من يستضيء بالفضيلة الساطعة هو وحـده الذى يمكن أن يسمو ولو كان ابن فلاح » وهذه القاعدة الأخلاقية تعلن فى صراحة أن « الأمبراطور » إذا حاد عن الصراط السوى ، فإن السماء تسلب منه السلطة ؛ وهـذا طبيعى لأن الملك مادام قد قطع برذيلته صلته الداخلية بالسماء ، فيجب ان تزول صلته الخارجية بها . ولقد تجسمت هذه الفكرة حتى خصص « كونفيشيوس » فيما بعد فى قانون العقوبات الذى أنشأه مادة لعقاب الفرد الذى يفقد صلته بالسماء .

أقنعت هذه النظرية الملوك بأن الحكم بحد السيف والخنجر مستحيل ، وبأن السلطة الوحيدة الدائمة إنما هى المنبثقة من الفضيلة، وفى هذا يقول كتاب « إى — كينج » فى وعظ الأمراء : « إن القوانين القاسية لاتستطيع أن تحقق الرخاء ، وإن نصيب الحزم يساوى نصيب الخيرية ، وإن القسوة يجب أن تقف عند التوسط ، فاذا ماتعدته فقدت نتيجتها النافعة . ومن يطبق القانون بوداعة مع حزم ، وبخيرية مع قسوة معتدلة ، يفز بالشهرة ، إذ يكون قد أدى وظيفته على وجه الكمال . إن الشعب إذا أحس بقسوة القانون عصاه دون أقل تأنيب من الضمير » ويقول أيضاً : « إن الوداعة الداخلية ، والحزم المعتدل ، والترضية الممنوحة للجميع من غير استثناء ، والأمانة ، والاستقامة ، كل ذلك هو الذى يحقق تحسين حال الشعب ويعظم امتداد الثقة حتى تتناول الخنازير والأسماك »

لم تكن هذه القواعد الأخلاقية عند الصينيين مجرد نظريات علمية تسجل فى الكتب دون أن تحقق فى الواقع ، كلا ، وإنما كانت أخلاقاً عملية طبقها الشعب : عامته وخاصته وملوكه . ومن هذا السمو الأخلاقى العملى ماتحدثنا به الأساطير الصينية عن أحد ملوك عصر ماقبل التاريخ ، وهو (هوانج — تى) أى الإمبراطور الأصفر الذى عاش حوالى القرن السابع والعشرين قبـل المسيح ، والذى تمثله لنا الأسطورة مثلاً أعلى للفضيلة والحكمة ، وإن كانت الكتب المقدسة لاتذكر عنه شيئاً

أما « شو — كينج » فهو يحدثنا أن بلاد الصين كانت سعيدة قوية فى عهد ملوك الأسرتين : الأولى والثانية أى أسرتى

« هِيَا » و « شانج — إين » لأن ملوكهما كانوا فضلاء وحكماء ؛ وكذلك امتدت السعادة إلى أول عهد الأسرة الثالثة التي أسسها « وين — وانج » الحكيم الذي كان يطلق عليه اسم الملك المهذب، والذي هو النموذج الأعلى لكونفشيوس ، والذي ساهم بخطه في نسخ « إي — كينج » وقد حكم في سنة ١١٢٢ قبل المسيح

غير أن السلطة انتقلت إلى ملوك غير مستقيمين فسلبت السماء سلطتها منهم ، وسقط الشعب في حضيض التنازع والتفرق ، وأخذ صغار الحكام يستأثرون بالسلطة . وعلى الجملة ساد الشقاء والبؤس تلك البلاد خمسة قرون كاملة انتهى بانتهائها هـذا العصر وبدأ العصر الذي سنتحدث عنه في الفصل الآتي

« يتبع » محمد غلاب

الخـــــريف

LA CHUTE DES FEUILLES

للشاعر شارل هوبر ميله فوى

ترجمة السيد عارف قياسه

« ميله فوى شاعر فرنسى رقيق من شعراء القرن التاسع عشر (١٧٨٢ — ١٨١٦) طبع بطابع الحزن العميق . تجرع كأس الحمام والغصن أملود والشباب ريق ، عقب هزال ألح عليه إلحاحاً فحطم جسمه تحطيما . نظم ميله فوى مراثى عديدة — وبذاك نبه ذكره وعلا شأنه — ولعل أشهرها الخريف La Chute des Feuilles

أحس الشاعر الشاب بالموت يدب فى مفاصله اللدنة وأعضائه الغريضة فعمد إلى يراعته وقرطاسه وأثبت هذه الآية الشعرية يبكى فيها حياته الفقيدة وشبابه الراحل وغصنه الذاوى . وأنت حين تقرأ غير هذه المرثية مما سجلته يراعة (ميله فوى) تحس بالكآبة Melancolie تسيل من كلماته وتفيض وتفيض حتى تغمر قلبك فلا تستطيع أن تحبس عينك عن إرسال أدمعها » (عارف)

تناولت يد الخريف الغابات فنضت عنها ثيابها ، وعرّت الأشجار من أوراقها الذاوية ، وكست أديم الغبراء بطبقة صفيقة منها ، ففقدت الغابة سرها ، وصمت البلبل الغريد عن الشدو

شاب مريض تبلغت به العلة — أفعم الأسى فؤاده فى فجر حياته ، ودب دبيب الموت فى جسمه فى ميعة صباه — أخذ يطوف بخطى بطيئة متمهلة فى الغابة العزيزة على سنيه الأولى وينشد هذه الألحان :

« أيتها الغابة التى أحب ! وداعاً مابعده من لقاء . المنية تنشب أظفارها فى جسمى . حدادك أنذرنى بجدى العاثر . إنى أرى فى كل ورقة تسّاقط من أوراقك آية من آيات موتى

أى عرّافة « أبيدور[1] » المشئومة ! لقد قلت لي :

« ستذوى أوراق الأشجار وستصفر فى نظرك ولكن للمرة الأخيرة »

السرو الخالد المتموج المياد أرخى فوق رأسه أفنانه الطويلة وابتدرنى قائلاً :

« سيذوى شبابك . سيذوى قبل ذوى عشب المرج وعُسْلج الهضاب »

يا لله ! هأنذا أقضى نحبى . مسّنى قر نكباء حرجف

أرى ربيع حياتى يتلاشى (كتلاشى الشموع فى زفرة اللظى الحمراء)

تساقطى أيتها الورقة الزاهقة تساقطى !

غشاوة على الأبصار وحجاب على الأعين هذه السبيل

إنها تخفى على يأس أمى مقري فى الغد

ولكن إذا توجهت حبيبتى — مع دلوك الشمس — شطر المسلك المنعزل ، شعثاء الشعر ، مشقوقة الجيوب تبكى على ، أيقظي بهمساتك الخفيفة ظلى القرير .

قال ذلك ، ثم طفق يبعد . . . وبلا إياب

الورقة المتساقطة أخيراً أعلنت انطفاء شعلته

تحت السنديانة شق لحده . ولكن حبيته لم تأت لزيارة جدثه ، وراعى الوادى هو الوحيد الذى يكدر صفو الرمس بوقع أقدامه

حماه « سوريا » عارف قياسه

(١) مدينة تقع على شاطىء بحر إيجة اشتهرت بعرّافيها

تطور علم الكلام

في رسالة انقاذ البشر من الجبر والقدر

للأستاذ محمد على كمال الدين

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

يظهر للباحث من عنوان المرتضى « بيان القدرة والمقدور » ومن قوله عن زعم جهم بأن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله . يظهر أن المرتضى يرى أن نظرية جهم فى خلق الأفعال هى عينها نظرية القدر ، وهي هي نظرية الجبر ؛ وقد صرح بذلك فى رسالته فى معرض صفات الله عند نهاية صفحة ٤٠ بقوله : « سبحانه وتعالى عما وصفه به القدرية المجبرة المفترون » وعليه يكون القدر فى عنوان كتابه : « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » عطف تفسير على الجبر

كما يظهر أيضاً من قوله : ولما أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد قبل ذلك ضرار بن عمرو بعد أن كان يقول بالعدل فانتفت عنه المعتزلة واطرحته . يظهر أن النظرية العدلية كانت هى السائدة بين طبقات الأمة حتى بعد حدوث الاعتزال أى بعد القرن الأول ، وأنها سبقت نظرية الاعتزال فى الحدوث وسبقت نظرية خلق الأفعال ؛ وأيضاً عند تدقيق أسطر المرتضى المبحوث عنها ولاسيما ما يخص ضرار بن عمرو نستنتج النقط الآتية :

(١) إن واصلاً وعمراً هما رجلا الاعتزال وإن ضراراً كان معتزلياً ؛ ونعرف هذا من استتباع المرتضى انتفاء المعتزلة عن ضرار بخروجه عما كان عليه واصل وعمرو بعد أن كان على رأيهما وأخذ عنهما

(٢) إن الزمن الذى حدث فيه الاعتزال هو عند المائة الأولى ، ويدل على ذلك أن ولادة واصل كانت سنة ٨٠ والعادة تقضى أن المرء لا يكون عالماً قبل أن يتجاوز العشرين من عمره وباضافة العشرين إلى الثمانين تكمل المائة ، وهو نتيجة طبيعية للتطور العقلى فإن للجدل العنيف بين طبقات الأمة فى تكفير ذوى الكبائر أو تفسيقهم يؤدى عادة إلى خلق جماعة وسطى تضع لذوى الكبائر منزلة بين المنزلتين

(٣) إن الزمن الذى حدثت فيه نظرية خلق أفعال العباد يكون بعد المائة الأولى بدلالة اطراح المعتزلة لصاحبها ضرار لأنه وافق جهماً فى نظريته الجديدة ؛ ونرجح أن يكون الزمن الذي حدثت فيه النظرية هو المدة المحصورة بين وفاة الحسن البصرى سنة ١١٠ وبين مقتل جهم سنة ١٣١ . على أن هذا الزمن المفروض حرى أن تحدث فيه النظريات العلمية لكثرة انتشار العلم والدرس مع ازدياد عدد العلماء وشدة تضارب الآراء والأهواء

(٤) فى هذا الظرف الذى حدثت فيه نظرية جهم ظهرت آراء ومقالات غريبة لم يصرح بها المرتضى ؛ غير أنه أضاف فى عرض حديثه عن ضرار أنه خلط تخليطاً كثيراً وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم . ولم أجد مسوغا للمرتضى فى عدم تصريحه بنوع هذه الآراء فى حين أن صاحب الملل والنحل ذكر كثيراً منها . ولو أن المرتضى ذكر بعضها لوجدنا من مقدمته سلماً كاملاً للتطور الفكرى . ونعود الآن إلى بقية أجزاء المقدمة ، قال :

« ثم تكلم الناس بعد ذلك فى الاستطاعة فيقال إن أول من أظهر القول بأن الاستطاعة مع الفعل يوسف السمنى ، وإنه استزله إلى ذلك بعض الزنادقة فقبله عنه ؛ ثم قال بذلك حسين النجار وانتصر لهذا القول ووضع فيه الكتب فصارت مذاهب المجبرة بعد ذلك على ثلاثة أقاويل : أحدها أن الله تعالى خلق فعل العبد وليس للعبد فى ذلك فعل ولا صنع ، وإنما يضاف إليه لأنه فعله كما يضاف إليه لونه وحيويته ، وهو قول جهم . الثانى أن الله تعالى خلق فعل العبد ، وأن العبد فعله فى استطاعة حدثت له فى حال الفعل لا يجوز أن تتقدم الفعل ، وهو قول النجار وبشر المريسي ومحمد بن برغوث ويحيى بن كامل وغيرهم من متكلمى المجبرة نحو الأشاعرة وغيرهم »

قبل تحليل هذا القسم نلفت نظر القارىء إلى كلمة المرتضي « مذاهب المجبرة » بدون أن يقرنها بكلمة القدرية ، فهى وإن لم تدل على رجوعه عن رأيه فى مرادفة الجبر والقدر ولكن يشم منها حدوث كلمة جبر ومجبرة ، وأنها غلبت فى نسبتها إلى جهم وجماعته بدلاً من لفظة القدر التي حاول أن يهرب عنها الفريقان المتطاحنان ، ولو أردنا التماس سبب لغلبة جهم فى هذا التملص من صفة (القدرية) ربما وجدناه فى مطابقة فهم العامة لمعنى كلمة

الجبر مع النظرية ولا سيما وإن جهماً ونظريته وأصحابه فرس أقحاح ، فهم أحرى أن يتحاشوا ويعملوا على الخلاص من وصمة الحديث « القدرية مجوس هذه الأمة »

ولنعد إلى بحثنا فقد استأنف المرتضى بحثه مراعياً تدرج الموضوعات بمقتضى تاريخها وتسلسلها الطبيعي فعرض لنا صورة من الجدل الذى جد بعد قرن وربع قرن بين علماء الجبر أنفسهم إضافة إلى النقاش الحاد بينهم وبين العدلية والمعتزلة ؛ فهذا ضرار لم يأخذ بنظرية صاحبه جهم كما هي ، بل حاول الجمع بينها وبين لون من الاختيار فقال : إن الانسان وإن يكن مجبراً على خلق الأفعال فإن هذا الجبر لا يتنافى على رأيه مع الاستطاعة على القيام بالعمل ، أى أنه لا يتنافى وجود فاعلين على أن يكون أحدهما كالقوة البخارية والثاني كالآلة المحركة ؛ وزاد أن هذه الاستطاعة سابقة على حدوث الفعل بخلاف جهم الذي سلب هذه الاستطاعة من أساسها ، وادعى أن إسناد الأفعال للإنسان على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة كما يسند اليه لونه وحيويته ، وكما يقال أمطرت السماء ، وكسفت الشمس ، وخسف القمر إلى غير ذلك

والذى يرمى إليه المرتضى حدوث بحث وموضوع جديد فى علم الكلام هو بحث الاستطاعة ولم يعين وقت حدوثه كما هى عادته ولكن سنة التطور العقلى تقضى بأن حدوثه إذا لم يكن فى حياة جهم أى قبل سنة ١٣١ فعقيب مقتله . على أن تعدد الآراء في بحث الاستطاعة مع تعقد النظريات يدل على طول زمن البحث فيها كما تقتضيه الأبحاث الفلسفية التي غمرت المجتمع بعد عهد المنصور أى بعد سنة ١٣٦ ... وعليه سوف لا نجد غرابة في بعد الزمن الذى حدث خلاله الرأى الثالث فى الاستطاعة أو القول الثالث من أقاويل المجبرة كما اصطلح المرتضى وهو قبل سنة ١٨٩ أى قبل زمن وفاة يوسف بن خالد السمنى صاحب هذا القول ؛ على أنه إذا كان الرأيان أو القولان الأولان يقرران نفى الاستطاعة مطلقاً أو وجودها سابقة على الفعل فبمقتضى التطور لا مناص أن يكون القول الثالث هو حدوث الاستطاعة حتى الفعل حيث لا رابع لها .

بقي علينا أن نعرف السبب الذى ساق المرتضى إلى نسبة هذا القول للزنادقة . أقول إن اقتران تحقق الاستطاعة مع الفعل صريح بأن هذه الاستطاعة أمر غير ذهنى فلا يمكن أن يتصوره العقل مجرداً بل يتحقق خارجاً كما تتحقق الحرارة مع النار ، وهذا عين مقالة الزنادقة القائلين بعدم وجود أمور ذهنية غير واقعة تحت الحواس ، لذلك نسب المرتضى إليهم هذا القول

أما شخصية يوسف بن خالد السمنى هذا وهل نسبته هذه إلى مذهب (السمنية) من مذاهب الهند القديمة فذلك مالم أستطع تحقيقه الآن لانعدام المآخذ لدى

ولكن الذى يلفت نظر الباحث اهتمام المرتضى بهذه المقالة : الاستطاعة مع الفعل ، فقد جعلها مفتاحاً إلى مقالة كثير من المجبرة مثل بشر بن غياث المريسى المتوفى سنة ٢١٨ ، ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث ، ويحيى بن كامل من أصحاب بشر ، وأيضاً الحسين بن محمد النجار الذى وضع فى هذه المقالة الكتب وغيرهم . فكأن المرتضى يشير إلى أن تاريخ اتساع علم الكلام وتشعب نظرياته عند المسلمين بدأ عند هذه المقالة ومنها أخذ يزداد توغلاً وعمقاً فكثر فيه المؤلفون والمجادلون والمجالدون ؛ غير أن تحقيق تطور هذه النظرية الذى هو موضوع بحثنا يحتاج إلى دقة وبحث واستقصاء أكثر ولا سيما وقد شغلت عهداً طويلا يبتدئ من سنة ١٣١ ويستمر إلى سنة ٢١٨ وهو عهد وفاة بشر المريسى ثم إلى عصر الأشعري وهو سنة ٣٠٠ . والآن نأتي على آخر أجزاء المقدمة ، قال المرتضى :

« ثم تكلم الناس من بعد ذلك فيما اتصل بهذا من أبواب الكلام فى العدل واختلفوا فيه اختلافاً كثيراً والكلام فى ذلك أوسع أبواب العلم »

فكان العدل هو العامل الأكبر فى خلق علم الكلام فقد ابتدأ مع أول نظريه وهى نسبة المعاصى لله أو للعبد نفسه ، واطرد مع جميع نظرياته ، وأخيراً أصبح العدل موضوعاً مستقلا لدى المعتزلة بل أصبح أوسع أبواب العلم كما يقول المرتضي ؛ غير أن المجبرة والصفاتية والأشاعرة تحاشوا التوغل فيه كما تتوغل المعتزلة

جدول تطور علم الكلام

الآن وقد أنهينا مقدمة المرتضي مع تطور علم الكلام الذي ارتآه وحاولنا البرهنة على صحة رأيه فى هذا التطور فلا ندرى إن كنا موفقين فى بعض هذه البرهنة أو غير موفقين ، غير أن القارىء ربما أدرك ما لاقيناه من العناء فى هذا السبيل . وإكمالاً للفائدة رأينا أن نلخص رأى المرتضي بالتطور فى الجدول الآتى :

النظـــرية	أصحابها	نقيض النظرية	أصحابه	الزمن
نسبة المعاصي لله		نسبتها للانسان والقول بالعدل	السلف	من ٦٠ إلى ١٠٠
تفسيق ذوى الكبائر وتكفيرهم	السلف والخوارج	منزلة بين المنزلتين	المعتزلة	١٠٠ — ١١٠
القدر أو الجبر ونفى الاستطاعة	جهم بن صفوان	الاختيار ومطلق الاستطاعة	السلف والمعتزلة	١١٠ — ١٣١
الجبر والاستطاعة قبل الفعل وعنده	ضرار بن عمرو	» » »	» »	— ١٣١
» » حال الفعل	يوسف السنى وبشر المريسى	» » »	» »	١٣١ — ٢١٨
» » » »	النجارية والأشاعرة	» » »	المعتزلة	٢١٨ — ٣٢٤

نتيجة البحث ورأينا الخاص

يلاحظ القارىء أنا حاولنا أن نتلمس رأى المرتضي نفسه لنكشفه أمام القارىء كيا يمكنه أن يستخلص منه طريقة تطور علم الكلام . وقد آن لنا أن نعرض أمام القارىء آراءنا الخاصة والنتائج التى حصلنا عليها ، وللقارىء أن يأخذ بها أولا يأخذ . وهى تتلخص فى أربعة أمور : زمان علم الكلام ، المكان الذى نشأ فيه ، عوامل تكوينه ، صبغته

(١) أما الزمن الذي نشأ فيه علم الكلام فهو عصر خلافة الامام على وحركات الخوارج وجدالها معه ، وأول نظرية هي بحث المعاصى والكبائر وتكفير مرتكبها سنة ٣٨

(٢) المكان الذى نشأ فيه علم الكلام هو العراق وبعض ما جاوره من بلاد الفرس بدلالة أن هذه الأقطار كانت منبت الخوارج ومراكز حروبهم ونظرياتهم فضلاً عن أن معظم علماء الكلام كانوا من أهل هذين القطرين

(٣) إن عوامل تكوين علم الكلام لم تكن دراسية بالأساليب والمناهج التى نعرفها بل كونتها ثورة فكرية عامة صدع بها الدين والكتاب المقدس وسندتها قابلية الفرد والمجتمع وغذتها الخميرة العلمية الموروثة تلقيا وتلقينا من دراسة الأمم والمدارس القديمة من سريانية وكلدانية وحيوية وجنديسابورية وحرانية وعبرية واسكندرية ، فكانت هذه الثورة الفكرية بما كان لها من مقومات ومغذيات هى المدرسة الكبرى لعلم الكلام وناهيك بالمجتمع مدرسة عظمى سريعة النموطبية النتاج

(٤) كانت صبغة علم الكلام منذ نشأته الأولى فى الصدر الأول فطرية ، فمشت نظرياته بمقتضى العقلية العربية الاسلامية ، وقد كفلتها الذهنيـة الخصبة فتوصلت إلى نتائج تلك النظريات طفرة ومن دون تعمل ، وأخذت بها كآراء صحيحة وإن لم تراع الترتيب والتبويب العلمي . ولا أظن أن هذا الأسلوب من الدراسة يمنع من أن ندعوه علم الكلام أو يمنع من اصطباغ معتنق نظرياته بصبغة علماء الكلام . وعليه يكون لعلم الكلام دوران : أولا صبغته الفطرية وهي تبتدئ منذ سنة ٣٨ وتنتهى فى سنة ١٣٦ ؛ والدور الثانى صبغته الفلسفية الحاضرة وتبتدئ منذ عصر الترجمة سنة ١٣٦ هـ

وتقريباً للاذهان سنضرب للقارئ مثلاً يرتضيه الخيال ويتفق مع النواميس الاجتماعية ، فربما أعطانا صورة لتلك الثورة الفكرية ، وهـذا المثال هي الثورة الثقافية والاجتماعيـة الماثلة لدى الشعوب والحكومات الشرقية التي استقلت بعـد الحرب العامة فقـد شاهدنا هاته الشعوب والحكومات كيف سارعت وتطورت فى دراسة نواحى الاستقلال وما يلابسها من نظريات اجتماعية وسياسية ومدنية وقضائية وعلمية وفنية وعسكرية وما إلى ذلك من خصومات الحضارة الأوربية وأساليبها — درست جميع ذلك بطريقة عمليـة تلقينية وبأساليب التفكير والتجربة والتقليد إذ لم تكن لدى تلك الحكومات ما يصح أن يقال لها مدارس فنية أو عسكرية قضائية أو اقتصادية ، ومع ذلك وجدنا ابن الريف والفلاح الأمى قد سارع فى تلك البلاد إلى تلقى الأنظمة والفنون الحربية بما فيها آلاتها وأدواتها الميكانيكية كما وجدنا الحضرى ساق السيارة والباخرة والقطار ، والتاجر والصانع أصبح سياسياً أو إدارياً أو صحافياً أو مهندساً فى حين أن معظم هؤلاء وأولئك لم يكونوا قد سمعوا بشئ فى ذلك فضلا عن مشاهدته والقيام بما يتطلب . والأغرب من ذلك كله أن جميع هؤلاء الفنيين أو المدربين الشرقيين قد نجحوا زمهروا ببضعة سنين

ونحن نرى فى هـذا المثال صحة المقارنة وانطباقها مع تلك الموجة العربية الاسلامية كل الانطباق إلى درجة لم يبق معها مجال للحيرة والشك فى سرعة قبول المسلمين لنظريات علم الكلام وفى كيفية امتزاج هذا العلم وأشباهه مع الدين الإسلامى

محمد على كمال الدين
(العراق . النجف)

في الأدب العربي

دعبـــل الخزاعى
الشاعر المتمرد
للأستاذ عبد الحليم عباس

قال دعبل : مضى على ستون عاماً ما تصرم منها يوم إلا وقلت فيه شعراً . وقد يكون مغالياً فى هذا ولكن الشىء الذى ليس فيه مغالاة أنه نظم كثيراً أضعاف ما خلص إلينا ، فقد ضاع الكثير من شعره ؛ وليس هذا الضياع بالمستغرب ، وإنما المستغرب أن يصل إلينا شىء من شعره فقد كان الرجل طلعة ، هجاء ، ومرعباً بهجائه . وحسبك أن تعلم أن من جملة من أقذع فى هجوهم خمسة من الخلفاء ، وفئة صالحة من الأمراء والوزراء والقواد ، ثم كان إلى جانب ذلك شيعياً . أفلا ترى أن الزمن كان متسامحاً إذ أبقى على شىء من شعره ؛ على أن هذه البقية كافية للحكم على شعره ، وتقديره من حيث الجودة ، ولكنها لا تكفي أبداً لدراسته من الناحية النفسية ، فليس يمكننا أن نعرف معرفة صحيحة أسباب تمرده ، ولا أن نجزم فى الحكم على بواعث ثورته ؛ وقصارى جهدنا أن نفترض وأن نتخذ من الكلمة الصغيرة ترد فى سيرته مفتاحاً للغوص على هذه النفس العجيبة ...

كان البحتري يتعصب لشعره ، ويفضله على مسلم بن الوليد ، ويقول فى أسباب هذا التفضيل : « إن شعره أدخل فى كلام العرب من شعر مسلم ... » أما إنه أدخل في كلام العرب من شعر مسلم فما لا يمترى فيه اثنان ، بل لعله أدخل فى كلام العرب من شعر كل الشعراء الذين تقدموه فى الدور الأول للدولة العباسية ؛ واما أنه خيرٌ من مسلم فالبقية الباقية لا تجيز لنا هذه المقارنة . هو متين السبك ، شديد أسر التراكيب ، فحل الأسلوب ، حتى لو دعته الضرورة أن يقول شعراً فى أقل الأمور التى لا تدعو إلى الاحتفال بالشعر ولفظه ، قال :

أسر المؤذن صالحٌ وضيوفه ... أسر الكمى هفا خلال الماقط

بعثوا إليـــه بنيه ثم بناتهم ... مابين ناتفةٍ وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا ... خاقان أو هزموا كتائب ناعط

وما هذا المؤذن الذى أسره صالح وضيوفه ، وكأنهم أسروا الخاقان وهزموا الكتائب ؟ ديك دجاجٍ لا أكثر ولا أقل . أتينا بهذه الأبيات ، لندلل على أن دعبل لايتنزّل عن فحولة اللفظ حتى فى أتفه المواقف . . ولكن واأسفاه لقد ضاع جلة هذا الشعر الفحل . ولنترك الآن الأسف والحكم على شعره فليس ذلك بمجدٍ شيئاً . . ولندرسه على ضوء ما تبقى من شعره ومن سيرته

والآن أيهما الشقى بصاحبه : أدعبل وهو يحمل خشبته — على حد تعبيره — فلا يجد من ينزو به الغيظ وتثور به الحمية فيصليه عليها ، أم أهل عصره وهم يتجرعون غصص ثورته ، ويصطلون بنار هجوه ، يمدحهم مرة فيغدقون عليه النعم ، ويتملقونه بالهبات ، عله يفىء إلى الرضا ، ولكنهم ما يعتمون — لا لشىء إلا أن دعبل أراد — أن يروا الرضا ينقلب سخطا ، والمدح هجاء مقذعاً ، لا تشفع فيه عارفة ، ولا ينهنه الخوف من سُلطان .

لم يترك وزيراً ترهب صولتُه ، ولا قائدا يُخشى فتكهُ ، إلا شنَّع عليه حتى الخلفاء رق إليهم ، فأقضَّ مضاجعهم ، وبعث فيهم من الوجل أضعاف ما بعث فيه سلطانهم . تصافى والمأمون — عقب هجائه لأبيه — فلا أذنٌ سمعت ، ولا قصيدة اشتهرت حتى كان كما يقول تاريخ عصره أول داخل على الخليفة ، وآخرُ من يترك مجلسه ، ولكنها أيام ... وإذا ببغداد تنشد قصيدة جديدة فى هجو الخليفة من نظم دعبل

ويأخذ الرشيد بطبعه ، وهو الخاملُ بعد لم تعرفه أندية الشعر ولا محافلُ بغداد ، وتصله هبتهُ قبل أن تراه عينه ، ثم يموت الرشيد فيكون رثاؤه إياه ...

قبران فى طوس : خير الناس كلهم ،

وقبر شرهم هـذا من العبر

لا ينفع الرجسُ من قرب الزكيِّ ولا

على الزكيِّ بقرب الرجس من ضرر

والرجسُ هاهنا هو الرشيد ...

ونعجز إن نحن لا حققناه ، نذكر من تصدى لهجائهم ، فحسبك أن تعلم أنه لم يسلم منه — كما يقولون — أقرباؤه ولا عشيرته الأدنون ، فقد هجا خزاعة ، وما خزاعة غير قبيلته التي أراد أن يكون فيها نسبه ، فالبعض يهمس همساً خفياً — فرقاً منه — أنه دعيّ النسب في خزاعة . فأيهما الشقى ؟ أهو بعصره ، أم عصره به ؟

أما هو فقد استمرأ طعم الشقاوة ، بل نظن أنه كان يجدُ فيها لذته

ما أطول الدنيا وأعرضها وأدلني بمسالك الطرق

الحق أن أهل عصره هم الأشقياء به ، هو بلاء صُبَّ عليهم فى أرفه العصور وأحلاها :

لقد طبع — أبو على — وهذه كنيته — على الهجاء ، وما هو بالهجاء ، وإنما الحريق يأتى على العدو والصديق ، فما علة هـذا ؟ أهى نفسٌ فطرت على الشر بطبيعتها ؟ أم أن هناك دوافع وحوافز ساقته إلى النقمة وقسرته على هذا التمرد ؟ هذا ما نحاول جهدنا أن نتلمسه فى سيرته وما نأسف — من أجله — على ضياع الكثير من شعره

وأول مايتبادر للذهن أنه قد يكون فى عقيدته الدينية تعليل لنقمته على عصره ، فقد كان شيعياً كما أسلفنا ، أشاد بمدح العلويين فمن المحتمل أن يكون انساق مع عاطفته الدينية ، فأخذ يشنع على العباسيين ، الخلفاء والوزراء وكل من له صلة بهم ؛ على أن هـذا إن يصدق على شاعر فعلى غير دعبل ، فالعصر العباسى شهد ثلاثة من الشعراء المتشيعين، دعبل، والسيد الحميري، وديك الجن ، وأوسطهم أخلصهم للعلويين ، السيد الحميرى هو الذى اتخذ مدح العلويين مجالاً لشعره ، أما الاثنان الآخران فقد كان تشيعهم من النوع الحقيق — إن صح هذا التعبير — انهمك الشاعر السورى في رثاء جاريته وردة ، وفى البكاء والحنين على جوار أخر ... أما دعبل فقد وجد فى الهجاء متسعاً يلهيه عن التشيع ... لم تعرف له فى العلويين قصيدة عبقرية خلا واحدة

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفر العرصات

صحيح أنهـا صادقة اللوعة ، تنم عن إخلاص ، وهو شيء لا ننكره ، وإنما الذى نذهب إليه وتؤيده سيرته نفسها أن يكون مصدر نقمته على الذين هجاهم نظرته إليهم كمغتصبين أو كأعوان لمغتصبى حق أبناء على ، وإلا فما يمنعه أن يلمح إلى أفضليتهم فى خلال هجائه للعباسيين على الأقل ؟ مرة واحدة ذكرهم فى هجو الرشيد

وليس حيٌّ من الأحياء نعرفه من ذى يمان ومن بدو ومن حضر
إلا وهم شركاء فى دمائهم كما تشارك أيسارٌ على جزر

وليس يرد على هذا أن المأمون جدَّ فى طلبه لهذه القصيدة فغير دعبل يستشعر الخوف ، أو يتدبر العواقب . أليس هو القائل للمأمون نفسه :

إنى من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله
واسترفعوك من الحضيض الأوهد

والقائل للمتوكل :

ولست بقائل قذعاً ولكن لأمر ما تعبـدك العبيد

وللمعتصم :

ملوك بنى العباس فى الكتب سبعةٌ
ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة
خيـارٌ إذا عدوا وثامنهم كلبُ

وشيء آخر . إذا كان كرهه للخلفاء ، ومناصبته إياهم العداء ، تشيعاً لأبناء على ، فما ذنب أقربائه ؟ ما ذنب عشيرته خزاعة ، بل ماذنب هؤلاء الذين ليس لهم من جريرة غير موافقة أسمائهم للقافية فى شعر دعبل

ما جعفر بن محمد بن الأشعث عندى بخير أبوة من عثعث
عد البيوت التى ترضى بعشرتها تجد فزارة العكلي من نسبك

إذن فلم تكن العقيدة الدينية هى كل السر فى هذه الثورة ، وعامة هذا الهجاء ، لعله تعصبه للقحطانية على النزارية ، لا على الأرجح ، لأن من بين من هجاهم من ليسوا من نزار ، بل نظن أن هذه كلها دوافع جاءت متأخرة ، وإنما السر كله فى تركيبه

يقول لأحد أصدقائه : ما كانت لامرىء عندى من مِنةٍ إلا وتمنيت موته . فما عسى يرى علماء النفس فى هـذه الخاطرة ؟ أإباء منحرف عن وجهته ؟ كيفما يكن فما هو بالرجل الخير هذا الذى يود أن يكافىء المحسن إليه بتمنى الموت له

وما ترى فيمن تهتاج نفسه لقول الشعر ، فتضيق عليه فنون الشعر إلا أن ينشئه هجاء ، فإذا سأله سائل: لمن؟ قال : « لم يستحقه أحدٌ بعد ، حتى إذا ما لاحاه أحد ، ذكر اسمه فيه ، ونشره في الناس

ودعبل يعلل هذه الظاهرة في نفسه بأن الهجاء آخذ بطبع الشاعر من المديح وأن الناس له أرهب . وقد قال مثل هذا بشار وقد يكون بشار صادقاً بالقياس لنفسه ، بل هو صادق مافي ذلك شك ، ولكن دعبلاً قد أخطأ في تعليل ظاهرة الهجاء فيه ؛ إنه مسوقٌ إليه بطبيعته ، إنه يفتنُّ فيه ، ويتخذه مجالاً لفنه ، كما يتخذ بعض الشعراء الغزل مجالاً للقريض

وعدا هذه الطبيعة المتمردة الناقمة فيه منذ نشأته الأولى ، فقد كان يرافق الشطار واللصوص ، واتهم مرة بالقتل

وبقيَ هذا الخلق ملازماً له كل حياته ، فكان يلاقي قطّاع الطرق يؤاكلهم ويؤانسهم ، فلا يؤذونه « ولا هو يتعرض لهم بأذى » قال أحدهم : مازلت أعرف فيه مشية الشطار

هو ناقمٌ ولكنك لاتلمح فيه هذه النقمة إلا هينة لينة ، فلا يشكو الزمن كما يشكوه غيره من كبار الناقمين ، كأنه أعلى من أن يضج بشكوى ...

حملت على زمنٍ ظالمٍ فوف تكافى بشكر زمن

وهو إذ يتهجم على الأحياء ويستفد جهد ثورته ، لا يوازن بين قدره وأقدارهم كما يفعل ابن الرومي في الهجاء ، ولعلَّ مردَّ هذا إلى أن دعبل لم يكن معجباً بنفسه كما كان ابن الرومي الذي أضعف أدواته الشعر

وإذا كان الهجاء آخذا بطبع الشاعر ، فما باله يكره ملاقاة الخلفاء أمنية كل شاعر ؟ أراد ابن المدبر أن يقدمه للخليفة فاعتذر أحد أصدقائه : إن أبا علي موسومٌ في الهجاء ومُنيته أن يخمل ذكره . فقال دعبل لصديقه : ماعدوت الذي بنفسي

ولسنا نحب أن نختم هذا الفصل دون أن نشير إلى شيء من التسامح الذي تحلى به عصره . أحب أبو مسعد المخزومي أن يوغر عليه صدر المأمون فأنشد هجاءه فيه ، فقال : أجبه ، قال : لو أمرتني أن آتيك بالذي على منكبيه لفعلت . قال : أما هذه فلا ...

إن العصر الحديث لجد محتاج إلى ملوك وأمراء ووزراء يستبقون القتل والسجن لغير رجال الأدب

« شرق الأردن » عبد الحليم عباس

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

حكمة البشر

ليست الأعالي ما يخيف بل الأعماق ، فعلى الجرف تحدق العين في الهاوية وتمتد اليد نحو الذرى فيقبض الدوار بالإرادتين على القلب

أفتعلمون أيها الصحاب ما هي إرادة قلبي المزدوجة ؟ إن الخطر المحدق بي على منحدري إنما هو اتجاه نظري إلى الذروة بينما تتلمس يدي مستنداً في الفضاء . وما أعلق إرادتي إلا على الانسان فتشدني إليه مرهقات القيود لأنني منجذب منه إلى الإنسان المتفوق فإليه تندفع إرادتي الثانية . إنما أنا أحيا بين الناس كالضرير لا يعرف من حوله ، كيلا تفقد يدي ثقتها من الوقوع على مستند مكينَ

أنا لا أعرفكم ، أيها الناس ، تلك هي ظلمتي أتلفع بها وتعزيتي ألجأ إليها

فأنا جالس أمام الباب متوجهاً إلى الأوغاد صائحاً بهم : إليَّ يا من يريد أن يخدعني

إن أول حكمة بشرية أعمل بها هي أن أستسلم لخداع الناس فلا أضطر إلى الوقوف أبداً موقف الحذر لأن في الناس من يخدعون

ولو أنني وقفت هذا الموقف في العالم أ كان يتسنى للإنسان أن يثقل منطادي فيمنعه من الانفلات والانطلاق إلى أبعد الآفاق ؟

إن إغفالي للحذر إنما هو عناية تسهر عليَّ لا يصالي إلى ما هو مقدور

إذا أنت امتنعت عن الشرب من كل كأس فإنك هالك ظمأ (١) ، فإذا أردت أن تبقى طاهراً بين الناس فعليك أن تتعود الاغتسال بالماء القذر

لكم ناجيت قلبي لأعزيه ، فقلت له : صبراً أيها القلب الهرم ، إنك لم تفلح بهذه النقمة فتنعم بها كأنها نعمة

وهذه حكمتي البشرية الثانية : إنني أداري المغرور بأكثر

(١) أليس هذا معنى قول بشار :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأي الناس تصفو مشاربه

(الرسالة)

مما أدارى الفخور ، لأن الغرور الجريح مبعث كل النائبات ، فى حين أن العزة الجريحة تستنبت جرحها ما هو خير منها

إذا لم يحسن الممثلون لرواية الحياة أدوارهم فيها نخير لك ألا تشهدها ؛ وليس أمهر من أهل الغرور فى التمثيل لأنهم يقومون بأدوارهم وكل إرادتهم متجهة إلى اكتساب رضى المشاهدين وإعجابهم ، وهم لا يدخرون وسعاً فى سبيل خلق شخصيتهم وتمثيلها، لذلك يلذ لى أن أنظر من خلالهم إلى الحياة فهم خير دواء للسوداء . إننى أدارى أهل الغرور لأنهم أساة أحزانى المقيمون الانسان ممثلا أمام عيانى

وفوق ذلك فمن له أن يسبر الأعماق فى تواضع المغرور فأنا أريد له الخير وأشفق عليه بسبب اتضاعه ، فهو يريد أن يقتبس منكم ثقته بنفسه متغذياً من نظراتكم ، متسولاً الثناء من تصدية أكفكم . إن المغرور ليصدق أكاذيبكم إذا ما أحسنتم إيرادها عنه ، فما هو إلا حائر يشك بأعماق نفسه فى قيمة نفسه

إذا كانت الفضيلة الحقيقية تجهل ذاتها فالمغرور كذلك لا يعرف شيئاً عن تواضعه

أما حكمتى البشرية الثالثة فقائمة على أننى لا أدع لاستحيائكم سبيلا إلى تنفيرى من مشاهدة الأشرار ، فأنا أسر بالنظر إلى ما تخلق حرارة الشمس من عجائب المخلوقات كالنمور وأشجار النخل والأفاعى ذوات الأجراس . ولكم بين الناس مثل هذه المخلوقات العجيبة أفقستها حرارة الشمس أيضاً ، وفى الأشرار أيضاً من البدائع الشىء الكثير ...

إن أوفركم عقلا لا يبلغ فى نظرى منتهى الحكمة ، كذلك لا أرى الشر إلا مبالغاً فى وصفه . ولكم تساءلت مشككا : لماذا لا تزال الأفاعى تطن بأجراسها ؟

إن لكل شىء مستقبله حتى الشرور ، فالظهيرة البالغة التناهى فى إشراقها لم تنكشف للإنسان حتى اليوم . لكم من أمور تعتبر شروراً فى هذا الزمان وهى لا تتجاوز الثلاث عشرة قدماً حجماً ، ولا الثلاثة أشهر بقاء ، وغداً سيولد ماهو أعظم منها . ولا بد من أن تخلق الحياة التنين المتفوق خليقاً بالانسان المتفوق ؛ فان شموساً محرقة ستدخل حرارة الابداع فى الغابات الغضة الرطبة لم تمسسها يد بعد

لا بد من أن تصبح وحوشكم نموراً وعقاربكم تماسيح ، فيجد القناص فى الغاب ما يرضيه

والحق أن فيكم كثيراً من المضحكات يا رجال العدل والصلاح . ولشد ما يضحكنى خوفكم ممن دعوتموه إبليساً . لقد بعد المجال بين روحكم وكل عظيم ، فاذا ما لاح لكم الانسان المتفوق بصلاحه أورثكم خوفاً ورعباً . فانكم ، أيها الحكماء والعلماء ، ستولون الأدبار إذا ما لفحتكم الحكمة المشعة على الانسان المتفوق فى غبطته وعريه .

لقد وقعت عينى عليكم ، أيها العظماء ، فأدركت هذا السر ، وهأنذا أعلنه لكم ، إنكم ستصفون الانسان المتفوق الذى أنبئكم به بأنه شيطان الشياطين .

أتعبنى هؤلاء العظماء ، وأشدهم إرهاقاً لى أوفرهم عظمة ، فأنا أتوق إلى اجتياز مرتبتهم فأفوتها وأنا أتجه إلى الانسان المتفوق

لقد عرتنى هزة عند ما شاهدت خيار العظماء فى عريهم فشعرت بجناحين استنبتهما ساعداى لأحلق بعيداً عنهم فى آفاق الدهور الآتية . إننى أتوجه إلى الدهور البعيدة ، إلى الظهيرات الغارقة بأنوار لم يحلم بها الفن من قبل ، فهنالك تتجلى الآلهة خجولة من كل ما يقع من حوادث على الأرض .

ليتنى أراكم متنكرين ، أيها الاخوة والأقرباء ، أهل الصلاح والعدل ، فتبدون بحللكم وقد نفخها الغرور ، وليتنى أجلس بينكم متنكراً أنا أيضاً ، كيلا أعرف من أنتم ولا أعرف من أنا ، لأن هذه آخر حكمة لى من حكم البشر .

هكذا تكلم زارا ...

مناجاة ...!

حبيبى ! إنْ دنا ثغرى ... إلى خـدَّيْك لهفاناَ . . .
فلا تغضَبْ ! فقد يُغرى الْـهوى باللثم أحيـاناَ !
وما ذنبي إذا ما كنـتُ فى وجدى منَ الناسِ ؟!
هو الحبُّ ! وما فى الحبِّ (م) يافتَّانُ من باسِ
فقم نمرح مع الأطيا ... ر إنَّ الله يرعاناَ !
وبادِلْني — فذاك الرُّو ... ح — أنفاساً بأنفاسِ !

***

حبيبى ! نم على كفِّي ... لأروى العين من حُسْنِكْ !
وأسقى رُوحىَ الظَّمْأى ... إلى الأنوار من دَنِّكْ ! !
وأطوي سـاعةً همِّي ... وآلامي وأكدارى
وأحيا بين أحـلامى ... وأنغامى وأشـعارى
وترنو سـاعةً عينا ... يَ فى صَمْتٍ إلى عَيْنِكْ !
وثغرى خاشـعٌ يُملِي ... على أذْنَيْكِ أسْرَارِى !

***

حبيبي ! هاتِ لي وحدِي ... رحيق الخلدِ مِن ثغرِكْ !
ودعنى أرشـف الألحا ... ن والأشواق مِن شَعرِكْ !!
لأهدِي نفسِيَ الحيْرى ... وأروي قلبىَ الصّـادِيَ
وأستَافُ الصَّبَابة والْـهوى مِن نورك الهادى !
عشقتُ الحسْنَ فيكَ وما ... عَشِقْتُ الحسْنَ فى غيْرِكْ !!
فهيَّا قم بنا نشـدو ... مع الأطيارَ فى الوادى !

***

عبـدْتُ اللهَ فى محرا ... بِ أشـواقي وأشجانِى !
وفيما شاهدَتْ عيْنِي ... وفيما قال شيطانى ! !
وفى الأطيار والأنهـا ... ر والأزهار والعُشُبِ
وفى حِسِّي وفى رُوحِي ... وفى نفسِي وفي قلبى !
وفى الحسْناءِ أبْصِرُها ... فأهواهاَ وتهـوانى !!
وأنشدها من الأشعا ... ر مايوحيه لى حُبِّي !

***

وداعاً ياهوَى نفسِي ... عرفْتُ الحبَّ والوَجْدَا !
ومَن تامَتْهُ غانيـةٌ ... يرى فى غَيِّهِ رُشْدَا !
وداعاً ! قد وهبْتُ الحبَّ (م) آهـاتى وأنفـاسي
وأوهامي وأحـلامي ... وتفكيرى وإحْسَاسِى !
فدعنى ! ليس فى دُنْياَ ... يَ ما يُرْجى وما يُهدا !
فلم يترك ليَ المحبو ... بُ ما أعطيهِ للنَّاسِ ! !

(اسكندرية) — محمود السيد شعبان

حظي من الناس !

لى الله من مستهدف شفَّه السقم ... فليس له روح يقوم بها جسم
مشت فى حياتى والشباب مصاحبى ... هموم لهـا فى محو آثاره همُّ
حياة يعاف الهامدون صروفها ... وينكر مسراها به الدم واللحم
لأجمل منها فى تجهمه البلى ... وأحلى مذاقاً من لذاذتها السم
نصيبي من دنياى مالا أحبه ... وحظى من أبنائها الكاشح الفدم
وحولى ممن يظهرون لى الرضا ... قلوبٌ إذا هبت سخائمها سحم
محضت صحابي الأقربين مودتى ... وباعد عنى كيد أعدائي السلم
فمالى أصلى الشدّ فى وحدتى وما ... لقلبى تغشاه الكآبة والغم
ومالالى فى الغيب قدنذروادمي ... وجوههم تندى وأحقادهم تنمو
إذا لم يكن غير الرياء خليقة
فأجدى لهذا الكون من أهله العقم

***

ألا أيها الشاكى الذى ليس ينتهى ... متى ينجلى عن فجر أيامك الوهم
طويت على يأس شبابك كله ... ولو شئت لم تيأس ولم يرعك السقم
أتشقى بما قالوا و يؤذيك ما لغوا ... وتشفق من عدوانهم كلما هموا ؟
وتجزع إما نال منك معاشر ... ضئال لهم فى كل مخزية سهم؟
عزاءك إن ضاقت فؤادك غمة ... فإن سهام البغى ترياقها الحلم
وصبرك للأعداء أنكى لكيدهم ... وشكواك من ظلم اللئيم هى الظلم

(حمص) — رفيق فاخورى



من أساطير الإغريق

غـــــرام أورورا

للأستاذ دريني خشبة

رأته على رمال الهلسبنت (١) يرتع ويلعب ، فوقفت تملأ عينيها وقلبها بجماله ، ثم نظرت إليـه وهو يداعب البحر المضطرب ، ويتواثب فوق عبابه الزاخر ، فسحرها قوامه ، وفتنتها قسماته ، ونسيت أنها ربة الفجر الوردية الهيفاء ، وأن من ذُكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب تيتون - بن بريام ملك طروادة - جمالاً وأشد فتنةً وأخلق بحب ربّة جميلةٍ لعوب مفتان ، مثل أورورا ... ولكن ماذا يصنع أهل هذا العالم فى قلوبهم ، ولا سلطان لأحدهم على فؤاده ؟ يستوى فى ذلك الأرباب وغير الأرباب

لقد كان تيتون يتقلب بين الموج ، فتتقلب نفس أورورا فى جحيم من الهوى ، وتتلظى فى سعير من الحب ، وتنجذب نحو الفتى الجميل المفتول بكل ما فيها من نورانية وقداسة ... وكان يبرز من الماء ليستجم على الشاطئ الناعم الوادع ، فتكاد تجن به ، وتود لو ترشف قطرات الماء التى تنحدر على جسمانه ذى العضل وتتلألأ فى ثنايا شعره الأسود الفاحم

وطفقت توسوس لها نفسها المغرمة بالأماني ! وتزخرف لها الأحلام ، فصممت أن تتكشّف له ، وتتبرّج على مقربة منه ، وتدل وتميس ، عسى أن تأسر لبه ، وتسبى قلبه ، فيسلس قياده ، وينخذل فؤاده ، دون مشقة أو عناء ... ولكن تيتون أبى ، واستكبر قلبه أن يلين ؛ ولم يستطع ذلك المرمر الناعم الذائب فى ساقيها ، ولا هذا الورد المتفتح فى خديها ، ولا الأبالسة الراقصة في عينيها وفوق ثديها ، أن ترقق من عناده ، أو تنتصر على فؤاده ، أو تسكب فى نفسه صبابةً أو هوى

— إذن أنت ما تشتهى !

— أشتهى ما ذا أيتهـا الغادة ؟ إذهبي فاعرضي مفاتنك الرخيصة على غيرى !

— ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا ؟

— أورورا ؟ كيف ؟ مايدريني ؟

— أجل ، أنا أورورا ... انظر

وأخذت ترف فى الهواء ، وتسبح فى السماء ، وتغوص فى الماء ، وتأتى من آيات الإعجاز ما بهر تيتون

— الصفح إذن يا ربة ؟!

— لا صفح إلا أن تهب لى حبك ، وتُلقى بين يدى قلبك !

— وكيف ، وأنا بشري عاجز ، ولا ألبث أن أفنى فى بضع سنين ، وهذا أبى الضعيف الشيخ قد خطب لى حسناء من بنات الملوك ؟

— « أما أنك عاجز فلا ؛ وأما أنك لا تلبث أن تفنى فى بضع سنين فسأهبك الخلود ، وسيخلعه عليك زيوس سيد الأولمب فلا تموت أبداً ، بل تحيا كالآلهة إلى لا نهاية الأزل ؛ وأما أبوك الضعيف الشيخ فلا أحب إليه من أن يراك فى كل ما ذكرت ، ولا سيما إذا علم أنى سأكون لك من دون هذه الفتاة التى خطبها لك ، والتي لا تلبث أن يخط الشيب رأسها ، ويعصر الزمان عودها فتجف ، وتذوى ، وتحملها أنت كأثقل الأعباء إلى القبر ... حيث الدود والذباب ، والكلاب والذئاب ... »

— ولكن ... ألا تأذنين لى فى لقاء أبى ؟

— لن يكون هذا أبداً ...

— هذه قسوة يا ربة !

— ستفتنك هذه القسوة بعد قليل

(١) مياه الدردنيل

وانطلقت تداعبه وتلاعبه ، وتضاربه وتقالبه ، حتى زالت عنه وحشته ، فأنس إليها ، وأقبل بكل مشاعره عليها ، واتفقا على الرحيل من فورهما إلى أولمب ، فانطلقا يطويان الرحب

* * *

— من هذا يا بُنيَّة ؟

— ... ؟ ...

— صيد جميل ، ومجازفة جديدة ؛ أليس كذلك ؟

— أجل يا أبي ، وليست مجازفات أبنائك أروع من مجازفاتك

— مجازفاتي أنا ؟ أية مجازفات يا أورورا ؟

— مجازفاتك الغرامية التي لا تحصى مع الغيد الرعابيب من عبادك

— أي غيد رعابيب يا أورورا ؟ جراءة بالغة !

— لعل الإله الأكبر ، سيد الأولمب ، قد نسى ! على كل حال فسيدة الأولمب حيرا العظيمة لا تنسى ... لقد شهدتك تلهو مع يو ، وتعبث مع لاتونا ، وتتساق كؤوس الغرام مع يوروبا .. و ... و ...

— أسكتي ... إنك ابنة لا خير فيك ... وماذا تبتغين لهذا الشاب الغرانق الجميل يا أورورا ؟

— الخلود ... الخلود يا أبي ... ينبغي أن يعيش أبداً ... لن يموت ... لن يموت ... ألا تراه جميلاً يا أبتاه ؟ ألا تبهرك منه وسامته وقسامته ؟ ألا تنظر إليه كيف هو عبل قوى عبقري سمهري؟ لقد لقيته عند شاطيء الهلسبنت ، ورأيته يشق اليم فعلقه قلبي ، وهويته نفسي ... وكان الموج يلفه في أعرافه ، ثم يسجد تحت قدميه كأنه يقبلها ، فلما خرج من الماء ، رأيت الدنيا كلها تحف به ، وتغازله وتناغيه ، فلم أر أن يفوز به غيري ، ولا أن يستأثر بجماله سواى ، وقد رضى أن يتبعني إلى أولمب ، فتفضل يا أبتاه وامنحه الخلود ، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة ، وذبول هذا الحسن شيء مخيف جداً ... ينبغي أن يعيش إلى الأبد حبيبي تيتون ... أليس كذلك يا أبي ؟ أليس كذلك ؟ أليس خليقاً بالخلود كالآلهة ؟

وتقدم تيتون فسجد بين يدي سيد الأولمب ، وتفضل رب الأرباب فمنحه الخلود ... واأسفاه ! ألا ليته ما فعل ... ألا ليته ما فعل ؟ !

قال زيوس وهو يحدث نفسه :

« إذهبي يا أورورا ، سأعذبك بهذا الحبيب ، وسأنتقم لكبريائي منك ، وسيكون تيتون عبئاً ثقيلا على قلبك ، وسيعيش إلى الأبد بجانبك كما اشتهيت ، وسأعلمك كيف تستبيحين أن تكلمي أباك كما فعلت ... فوعزتي وجلالي لأعذبنك بألف حبيب وحبيب ! »

* * *

وعاشت أورورا مع حبيبها تيتون أحسن عيش وأجمله ، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام ، وأنجبا طفلهما اليافع الجميل ممنون (١) فكان لهما كالقبلة الحلوة فوق ثغر الحياة الباسم

ومرت الأيام ، وأورورا جميلة وردية كما هي ، لأنها ربة ، ولأن قوانين الزمان من قدم وحداثة لا تجوز على الآلهة لأنه لا أول لهم ولا انتهاء ؛ فأورورا جميلة دائماً ، وردية أبداً لا ينى قلبها يخفق بالحب وينشده ، ويهيم بالجمال ويفتقده ، ونفسها عاشقة وامقة كذلك ، وإن أماني الغرام تجيش في صدرها دواماً ، فهي إن خلت إلى حبيبها تيتون أزمته فنوناً من الغزل ، وضروباً من النجوى ، إذا صبر لها الشباب ، واحتملها الصبا ، فليس المشيب بصابر لشيء منها ، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها ، ولا له جلد على أفانينها

— ما هذه الشعرة البيضاء التي بزغت في سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر في أخريات الليل يا حبيبي ؟

— « أية شعرة بيضاء يا أورورا ؟ ربما كانت نذير المشيب ياحبيبتي !

— « المشيب ؟ ! كلمة غريبة لم أسمعها إلا منك ! ماذا تعنى ؟

— آه ! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب ، أما نحن ، معشر البشر ، فسرعان مايذهب صبانا ، ويولى شبابنا ، فنشيخ ونهرم ، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه إبر الشوك ، يقول الشعراء إنه نور قبيح يسعى بين أيدى الكهول ليشق لهم ظلام القبور ! !

— يا للهول ؟ إن هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفني !

---

(١) قتله أخيل في حروب طروادة

— اطمئنى ! أنا باق إلى جانبك آخر الدهر . أليس قد وهبنى الخلود سيد الأولب ؟

— بلى ! ولكن …

— ولكن ماذا ؟

— هذه الشعرة البيضاء التى قال فيها شعراؤك ما قالوا ؟

— الشعرة البيضاء ؟ مالها هذه الشعرة البيضاء ؟ ليست شيئاً مادام سيد الأولب قد وهبنى الخلود ؛ إن الذى أفزع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به من غروب شمس الحياة !

— ولكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا ؟

— آه ! قد فهمت ما يوسوس فى صدرك ؟ ألم أعد جميلا يا أورورا ؟

— بل أنت ما تزال جميلا يا حبيبى .

— إذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء .

***

وتمتا سنوات أخريات ؛ ولكن الشعرة البيضاء أصبحت شعرات وشعرات ، حتى غلب نور المشيب حلك الشباب ؛ ولم تعد لطُرَّة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللمعة ، وذلك السحر الذي كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام فى قلوب العذارى … بل حال لونها الأسود الفاحم ، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن باسر ذى أسارير ، يبعث الرهبة فى أفئدة العفاريت !

— تيتون !

— نعم يا حبيبتى !

— لا ! لا ! لا تنادنى بهذا النداء .

— ولِمَهْ ؟

— لم يعد يصلح … لقد اشتعل رأسك شيباً ، وتغضن جبينك ، وتَرَهَّل خداك وبرزت عظامهما ، وغارت عيناك جداً وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض ، والصبى الغريض . وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون ! ويْ ! مالك تنحني هكذا ؟ هل ضاعت منك درة ثمينة ، فأنت تبحث عنها في أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ ؟ آه ! بل ضاع منك شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه فى هذا الثرى !

— حسبك يا أورورا … حسبك يا ربة !

— « لا ، أبداً ، ليس حسبي ، أغرب عني أيها المسخ الشائه ظل فى عقر الدار حتى أرتد إليك ! !

وانطلقت ربة الفجر الوردية غاضبة صاخبة ، وذهبت تطوى الفيافى وتهيم فى الرحب ، حتى كانت من غير قصد عند شاطيء الهسبنت ، حيث لقيت لأول مرة حبيبها الجميل الشاب تيتون ابن بريام ملك طروادة ، منذ نصف قرن من الزمان ! ! أواه تيتون ! ! يا للذكريات الحلوة التى تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعيني نائم ! ! هنا ، على رمال ذلك الشاطىء الهادىء ، وبين طيات ذلك الموج الذى يبدو كأنه لم يتغير ، رأت أورورا الوردية تيتون البارع ، وشعره الأسود الفاحم يتهدل على جبينه الوضاح ، ثم لا يلبث أن يستوى حين تمر عليه أمشاط الأمواج . وهنا … ثارت عاصفة الغرام القديم فى قلب ربة الفجر الوردية لأول مرة ، وشب لظى الحب ملء جوانحها … وفوق هذه الرمال السافيات تكشفت أورورا لتيتون الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه ، ولكنها ما استطاعت إلى ذلك من سبيل ، حتى تقلبت تحت قدميه ، وتبرجت بين يديه ، فرضي ماعرَضَت عليه ، وانطلق معها إلى أولمب ! فما لها اليوم غاضبة على تيتون ؟

مشت على شاطيء غرامها الأول فثارت فى فؤادها الذكريات وأرسلت عينيها تفتش بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة ، التى تطفو هناك … هناك فوق ذاك الشبح كحلم جميل … صورة تيتون وهو يصطرع مع اليم فيصرعه ، ويغالب اللجة فينتصر عليها … ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلىء بالذكريات … وطفقت تبكى !

لا ريب أنها عنفت نفسها على ماصنعت أمس مع تيتون ! ماذنبه ؟ ما جريرته ؟ بأى حق تنعى عليه شيبته ولا يد له فيها ؟ ولماذا تخزه بقوارص الكلم لأن جبينه تغضن وامتلأ بأسارير الكبر ؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الغائرتين المنطفئتين ؟ ولم تذكره بشبابه وتتهكم عليه فتقول له إنه يبحث عنه بعكازه فى التراب ؟

لا ريب أنها كانت قاسية ، ولا ريب أنها لامت نفسها ، لأن كل تلك الأفكار ترددت فى أعماقها ؛ وقد سألت روحها المتألمة ألف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيما صنعت …

***

وعادت أورورا أدراجها إلى تيتون البائس الهرم فهشت له

وبشت ، وراحت تملق له ، وتتحايل على قلبها ترجو لو تستطيع أن تخدعه فيسيغ هذه الكومة المتراكمة من القبح والشوه والدمامة ؛ قبعت فى ركن سحيق تحمل أوضار السنين وتنوء بكارثات الليالى

ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين ؛ ولكن للآلهة[1] كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال ، ومدى غير واسع من الصبر ؛ وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شاقة ، عادت بعدها إلى التبرم بتيتون ، والضيق بشيخوخته الثقيلة ، والنقمة على تلك اللحظة الأسيفة التى لقيته فيها ، ونوبة الجنون التى جعلتها تتورط لدى سيد الأولب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخلود

— وفيم كل هذا الحزن يا أختاه ؟

— وما العمل للخلاص منه ؟

— أنت المخطئة ، ذلك لا ريب فيه

— مخطئة ! وكيف ؟ هل كنت عامدة أن أقصد إلى الهلسبنت لأراه ثمة ؟

— أبداً وليس هذا ما عنيت

— إذن كيف كنت مخطئة ؟

لأنك سألت سيد الأولب أن يهب حبيبك الخلود ، ونسيت أن تسأليه أن يديم له شبابه ، ويحفظ عليه صباه . إذن كنت تمتعت بجماله الفتان أبد الحياة !! أليس كذلك يا أورورا ؟

— بلى ، هو ذاك ولكن ... لقد سبق السيف العذل !

— على كل حال هناك من هو أجمل من تيتون فلا تبتئسى

— أجمل من تيتون ؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شىء ؟

— « لا أيسر من ذلك ، إسحريه !

— أسحره ؟ ! آه ، أسحره ؟ فكرة يا أختاه ! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذى عنيت أنه أجمل من تيتون ؟

— وَىْ ! لا بد من صيد آخر قبل أن تطلقى سراح الصيد القديم ؟!

— لا بد يا أختاه لا بد ؟

(١) ليذكر القارئ أن القصة من أساطير اليونان

— إذن فاذهبى إلى جبل هيماتوس حيث يرعى سيفالوس الجميل قطعانه !

— « ثم ... ؟

— ثم عودى فاسحرى تيتون واخلصى منه !

— وماذا ترين أن أسحره إليه ؟

— إنه عجوز هرم يدب على عكاز ... ألا تسحرينه (نطّاطا[1]) ؟

— بلى ! فكرة أخرى نابغة يا أختاه !

* * *

ولقيت أورورا حبيبها الجديد سيفالوس الراعى فهويته وشغفته حبا ؛ أما تيتون فياويحه ، وياويح للعشاق من قلوب العذارى ! إنه مازال إلى اليوم يثب مع آلاف الجنادب فى الحقول والغيطان[2] بعد إذ سحرته أورورا

دريني خشبة

(١) بالعربية (جندب)
(٢) السهل المطمئن الواسع من الأرض



مصاير تراث اسبانيا الفني

ماذا كان مصير ذخائر أسبانيا الفنية بعد عام من حرب أهلية طاحنة سحقت في طريقها كل شيء؟ لقد أثار مصير هذا التراث الفني العظيم جزع الدوائر العلمية والفنية في جميع أنحاء العالم، وهو جزع من حقنا أن نشاطر فيه بنوع خاص؛ ذلك أن بين هذا التراث آثاراً وذخائر إسلامية عزيزة هي البقية الأخيرة من ذكريات الأندلس الاسلاميــة. وقد رأت حكومة الجمهورية الاسبانية إزاء هذا الجزع أن تدعو العلامة الأثري الانكليزي السير فردريك كنيون إلى إسبانيا ليتحقق بنفسه مما بذلته الحكومة من جهود عظيمة لصون هذا التراث؛ فاستجاب السير كنيون إلى هــذه الدعوة وطاف أياماً بمدريد وبلنسية، وعاين الأماكن التي نقلت إليها المخطوطات والصور والتحف الفنية، ونشر نتائج تحقيقه في جريدة التيمس. وخلاصتها أن الحكومة الجمهورية قد استطاعت أن تنقذ معظم تراث أسبانيا الفني، وأن مجموعة قصر «برادو» التي ظن أنهــا أتلفت، وهي من أعظم المجموعات الفنية قد نقلت على عجل إلى بلنسية، وحفظت في قلعتها المنيعة في صناديق غير قابلة للحريق؛ وحفظت مجموعة البسط والمنسوجات الملكية أيضاً في أحد أبراج القلعة، ومنها عدة من مجموعة الدوق ألبا الشهيرة. أما مجموعة الأسكوريال من الكتب والمخطوطات، وهي التي تضم بينها المكتبة العربية الأندلسية، فقد نقل منها نحو ألف مخطوط إلى بلنسية؛ ونقل إليهــا أيضاً مجموعة كبيرة من نفائس المكتبة الوطنية، وحفظت باقي الكتب والمخطوطات بمدريد في مستودعات أمينة أحيطت بجميع الوسائل الممكنة للصيانة والانقاذ. ومن ذلك يتضح أن جميع محتويات مكتبة الأسكوريال الشهيرة، ومنها المجموعة العربية الأندلسية التي تضم نحو ستة آلاف وخمسمائة مخطوط عربي قد أنقذت من ويلات الحرب، وحفظت سليمة إلى اليوم، وذلك بالطبع يثلج صدر كل عربي وكل مسلم

ولا زالت مجموعة كبيرة من الصور تحفظ بقصر «برادو» غير تلك التي نقلت إلى بلنسية وفيها كثير مما حمل من قصر الأسكوريال؛ ونقلت مجموعة كبيرة من الذخائر المختلفة من صور وتحف خزفية وأثاث وتماثيل إلى أقبية المتحف الأثري، وإلى أقبية كنيسة سان فرنسيسكو، وهي وإن لم تنظم وتصنف فان كل قطعة منها تحمل تعريفها

أما مجموعة الدوق ألبا الشهيرة فقــد أصابها بعض التلف، وقد هدم قصر الدوق ألبا المسمى قصر «ليريا»، ولكن أنقذت معظم محتوياته ونقلت مجموعة الصور إلى بلنسية، وكذلك الأواني الذهبية والفضية، والبسط الثمينة. أما المكتبة فقد أنقذت أيضاً ونقلت إلى دار البلدية، وكذلك نقل إليها عدة من قطع الأثاث التي أمكن إنقاذها

وأما مجموعة طليطلة فليس يعرف مصيرها؛ وقد نقلت الحكومة بعضها مما كان في الكنيسة الكبرى قبل إخلائها، ولكنها تركت الباقي ومنها صور جريكو وإنجيل سان لويس الشهير وغيرها، ولا يعرف ماذا أصاب هذه الذخائر بعد استيلاء الثوار عليها

صور بالفرنسية من الحياة المصرية الشعبية

من الآثار التي أخرجتها أخيراً بالفرنسية أقلام مصرية كتاب للسيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية عنوانه «الحريم» Harem، وقد أصدرته دار النشر الفرنسية «جايمار» ضمن المجموعة التي يشرف على إصدارها الكاتب الكبير بول موران؛ ومهد له بول موران نفسه بمقدمة جميلة نوه فيها بما يحتويه الكتاب من صور ساحرة تطبعها البساطة، وتمثل في ألوان

زاهية طرفاً من الحياة المصرية في المجتمعات الشعبية ؛ ويقول لنا بول موران فى خاتمة كلمته إن هذه الصور التى استخرجت من روائع مصر المضطرمة تبعث إلى النفس متاعاً وحرارة وتقترب منا ، وتلمح فيها من خلال النسمات الساحرة أن شمسها هى شمسنا : شمس البحر الأبيض المتوسط »

أما الصور التى يقدمها بول موران إلى قرائه فهى : شم النسيم . عقد الزواج . ليلة الحناء . ميلاد . طلاق . قهوة الهانم . ليلة من ليالى رمضان . العيد . ليلة فى القرافة . يوم الأضحى . العودة من الحج . سوق البطيخ . مقهى فى مصر القديمة . الذكر فى جامع سيدى المغربى . المدير فى القرية . . . وغيرها ؛ وهي صور مألوفة لنا نعرف جميعاً كيف تدور فى أوساطنا الشعبية ؛ ولكن الطريف هو أن هذه الصور تقدم إلينا بالفرنسية فى ألوان أخرى يرى فيها القارىء الغربى متاعاً خاصاً قد لاتسبغه عليها صورها الأصلية ؛ وتقدم إلينا المؤلفة هذه الصور المختارة من الحياة المصرية الشعبية بأسلوب بسيط ، ولكنه لاذع فى مواطن كثيرة ينم عن تمكنها من تفاصيل هذه الصور ، وتذوقها لروح هذه التقاليد الغريبة التى أخذت تختنق شيئاً فشيئاً من الحياة المصرية .

وإذا كان ثمة مايبعث إلى الأسف فهو أننا لم نوفق بعد إلى إخراج صور من حياتنا الشعبية باللغة العربية تنبو عن ذلك الابتذال الذى يقترن بتصويرها عادة ، وتنفث ذلك الروح اللاذع الذى يسبغه عليها الطابع الأجنبي

آراء جديدة فى التربية للكاتب ولز

عقد أخيراً فى انكلترا مؤتمر للتربية برياسة الكاتب الباحث الاجتماعى الشهير ه . ج . ولز ، بسط فيه آراءه في التربية ، وهى آراء طريفة خلاصتها أن المواد التى تدرس للنشء يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم يعمل لتكوين الذهن البشرى ، وقسم لتلقين المعارف . ويرى ولز أنه يجب أن يخصص للقسم الأول ثلاثة أرباع الوقت . ويحمل ولز على نظم التعليم الحاضرة ، وخصوصاً فى تعليم التاريخ والجغرافيا ، ويرى من السخف أن تحشد فى رؤوس التلاميذ أسماء الأنهار والجبال والمدن ، وقصص حب الملوك والملكات والمعارك الحربية السخيفة على النحو الذى تلق به . ومن رأيه أن تعليم التاريخ يجب أن يدور حول تاريخ النوع البشرى ، وما وفق اليه الذهن البشرى من الاختراعات العظيمة وتأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية فى حياة المجتمع ؛ أما التاريخ القومى الذى يتخذ اليوم أداة لبث الدعايات المختلفة فيجب أن يكون قطعة من التاريخ العام . ومن العبث أن يحكم على الماضى لصالح الحاضر ، أو على الحاضر لصالح الماضي كما هو الشأن اليوم فى معظم الدراسات

ولآراء ولز فى تعليم التاريخ قيمة خاصة لأنه أستاذ هذه المادة وقد سبق أن عالجها فى فرص كثيرة ، وكتابه الشهير فى خلاصة تاريخ العالم يتأثر بهذا الاتجاه الجديد الذى يريد أن يسير فيه تعليم التاريخ

علم أوراق البردى

دارت فى مؤتمر أوراق البردى الدولى الذى عقد أخيراً فى اكسفورد مناقشة حول تعريف « علم البردى » (بابيرولوجى) فذكر العلامة السير كنيون أنه يشك فى وجود علم حقيق يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم ، وأنه من الواجب أن نعترف بأنه لايوجد مثل هذا العلم ، أو أنه إذا وجد فهو علم محدود المدى . وعلم البردى هو العلم الذى يبحث فى جميع الكتابات التي تلقيناها على صفحات البردى ؛ والمبرر الوحيد لمعاملته كوحدة علمية خاصة هو أن النقوش التى تلقيناها تتعلق فى جميع الأحوال إما بزمن خاص أو موضوع خاص أو بهما معاً . ولقد تلقينا عن طريق البردى معلومات عن الانجيل والتوراة هى أقدم معلومات من نوعها؛ وقد ألقت ضياء على تاريخ الكتب المقدسة فى عصور مظلمة جداً ، وردت كثيراً من النصوص إلى أصولها ، وأثبتت أن الفساد لم يتطرق إلى النصوص أيام العصر البيزنطى فقط . كذلك تلقينا عن طريق البردى معلومات كثيرة عن الكتابات اليونانية ، وتلقينا عن طريقها معلومات نفيسة عن مصر الفرعونية خلال عصر يربى على ألف عام .

والسير كنيون هو أعظم العلماء الاخصائيين فى مباحث البردى ، وقد بدأ مباحثه فيها منذ نحو خمسين عاماً . ومؤتمر البردى المشار إليه هو الخامس من نوعه . وقد شهده مائة وخمسون عالماً من جميع الأنحاء .

من خطبة واصف غالى باشا الثانية فى عصبة الأمم دفاعا عن فلسطين

« إنى أشترك من صميم فؤادي مع مندوب نروج فى الثناء على مهمة عصبة الأمم وعلى أعمال الدول المنتدبة فى مختلف البلدان الواقعة تحت الانتداب ، كما أنى أقدر الخدمات الجليلة التى يقدمها

الذكاء اليهودى للعالم فى جميع ميادين النشاط البشرى ، ولكنى لا أكتم أسفى لأن الخدم التى أداها العرب للحضارة عامة وللحضارة الأوربية بنوع خاص أهمل أمرها ولم ينوه بها التنويه الكافى »

« وأنا لا أريد أن أتوغل فى هذا البحث ولكنى أقول على سبيل التذكير إن أوربا فى القرون الوسطى لم تطلع على آثار اليونانيين إلا من التراجم العربية ، وإن الفلاسفة والشعراء العرب أثروا تأثيراً عظيما فى الفلسفة والشعر فى أوربا الجنوبية ، وإن تأثير الفروسية عند العرب فى أخلاق القرون الوسطى التي كانت جافية في أول الأمر ساعد على تهذيبها وتثقيفها وتجميلها »

استخدام اللغة العربية فى الاذاعة الدولية

من أخبار جنيف أن سكرتارية عصبة الأمم العامة ستدرس فى آخر الدورة كيفية استخدام اللغة العربية فى نشرات الاذاعة اللاسلكية التى تهم التعاون الفكرى ، وقد وافقت اللجنة بالاجماع على استخدام اللغة العربية ، على أن هناك حاجة للقول بأن الأموال المرصودة فى ميزانية السنة الحالية لا تساعد على نشرات الاذاعة اللاسلكية فى مدى كبير ، ولكن السكرتارية مصممة تصميما صادقاً على أن تبدأ فى تنفيذ القرار وستخصص مبلغاً لهذه الغاية . والبعض يأمل فى أن تعطى مصر إعانة مالية كبيرة للبدء فى الدعاية التامة .

والاذاعة باللغة العربية فرض أساسى على مصر لأنها أكبر وأغنى البلاد التى تتكلم هذه اللغة . ومع ذلك فمن العدل أن تشترك فى ذلك جميع البلدان التى يهمها الأمر بما تسمح به وسائلها المادية وواجب كذلك على البلدان الأوربية الكبيرة التى لها عدد كبير من الرعايا العرب ، كما أنه واجب على البلدان العربية الأخرى التى هى من أعضاء أو من غير أعضاء عصبة الأمم أن تساهم في هذا العمل ، فمسألة التعاون الفكرى متعلقة لا بالبلدان التى هى أعضاء في عصبة الامم ، بل بجميع البلدان

الى سيدى الأستاذ الزيات

أشكر لك رأيك فيما كتبت من مقالات عن فقيد الأدب العربى المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وأعتذر من عدم استطاعتى تقديم شىء لهذا العدد والعدد السابق ؛ وأنت أعلم بما علىّ من واجبات ثقال فى هذه الأيام تحول بينى وبين كثير مما أحب ، وأعد بأن أرسل الجزء التاسع من هذه المقالات للعدد الآتى ؛ وأرجو أن تتهيأ لى الظروف التى تعيننى على الاستمرار فى كتابة تاريخ الرافعى وفاء للرجل الذى وقف حياته للدفاع عن الاسلام والعربية ، فلما مات أوشك أن ينساه من المسلمين والعرب إلا قليل من أهل الوفاء . والسلام عليكم ورحمة الله ...

« شبرا » محمد سعيد العريان

وفاة الأستاذ كابيتان

توفى الأستاذ هنرى كابيتان العضو في المعهد الفرنسى والأستاذ فى كلية الحقوق بباريس ، والأستاذ كابيتان معروف لدى كثير من المصريين الذين تلقوا علومهم فى كلية الحقوق بباريس ، حيث كان الفقيد يدرس القانون المدني منذ سنين طويلة . وقد توفى عن ٧٢ عاماً . وكان إلى جانب عضويته فى المعهد ، عضواً فى أكاديمية العلوم الأدبية والسياسية والمجلس الأعلى للمعارف ، كما كان يمثل فرنسا فى الهيئة الدولية لتوحيد القانون الخاص . وللفقيد مؤلفات قانونية كثيرة جلها خاص بالقانون المدنى ، وله فى « سبب الالتزام » نظرية معروفة .

وكان الأستاذ كابيتان رئيساً للجنة الامتحانات التى جاءت السنة الماضية لامتحان طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة وقد طلب من الأستاذ كابيتان حينذاك الاسراع بالعودة إلى باريس بسبب وفاة نجله .



روايـة المصـــــدور

تأليف الأستاذ كرم ملحم كرم

للسيد جورج سلستي

أطلّت القصة الحديثة على الأدب العربى مستحيرة الوضاءة مكتملة العناصر والتكوين ، فهفت إليها الأبصار هفوها إلى الجمال المتألق الضاحى ، وتعلقتها الأفكار تعلقها للجديد المستطرف الأخاذ ، وتشرّبتها النفوس بلذة وشغف ؛ ونفوس الأدباء أبداً ظماًى للخمرة العلوية يترع الفن بها أقداحهم فيعبّون منها ولا يرتوون

والقصة اليوم — وهي تتبوأ الذروة فى الأدب — رسالة من رسالات الفكر النير يزفها هدى للناس فنان ملهم ، ومشعل من مشاعل الثقافة الشاملة يحمله للورى عبقرىّ فذّ ؛ رسالة تمشى بالناس نحو هدف من أهداف الانسانية الـكبرى ، ومشعل ينير لهم من خفايا نفوسهم ما يجهلون .

فلا غرو إذن — وللقصة هـذا المقام الرفيع — إن رأينا أدباءنا يعالجون فنها الساحر على ضوء النظريات الحديثة ، ويقدمونها للقراء نتاج ما وصلت إليه قرائحهم من قدرة على تفهم أسرار النفس البشرية الغامضة ، واستطاعة على الإبانة عن الشعور بالحق والحب والجمال .

والأستاذ كرم ملحم كرم استهوته القصة وهو أديب ناشئ طرير العود ، وقد طلع على النـاس بمجلته الروائية الأسبوعية « الف ليلة وليلة » وهو محرر في جريدة « الأحرار » فعرفنا به أول أديب فى قطر الشام وقف جهوده كلها فى سبيل الفن الروائى . وهو لا يزال منذ عشر سنوات خلت حتى اليوم يتحف الأدب بروايات شائقة جلها يمت إلى القصص العالى الرفيع ، ولا سيما الموضوعة فقد بلغ الـكثير منها فى الحوار والتحليل وسرد الوقائع شأواً بعيداً فى الجودة

و « المصدور » قصة إنسانية ، وقائعها مستمدة من صميم الحياة ، محورها الحب الشهيد وقطبها العاطفة المقهورة ، تتلخص فى أن طالباً من أبناء الموسرين هام بحب قروية عذراء أهلها خدم فى أملاك أبيه فى ضواحى المدينة ، وهامت هى به كذلك دون أن يأبها للهوة السحيقة التى تفصل بين مقاميهما . وعاهدها على الزواج مهما اعترضته العراقيل ، وعاهدته على الوفاء حتى الموت

وهنا يبدأ النضال الشريف فى سبيل الحب الطاهر الوثيق بين القلبين الـكبيرين ، ومن هنا تبدأ الآلام النفسانية المرهقة التى لاتنتهى إلا بمأساة فاجعة

فأهل الحبيب المعمود لم يكادوا يدرون بما يتأجج فى فؤاده من هوى مبرّح لربيبة نعمتهم حتى ثارت ثائرتهم ، وحتى راحوا ينهون فتاهم عن هذا الحب الأعمى الغرّار تارة باللطف والحسنى ، وطوراً بالتهديد والوعيد ، وحتى حالوا بينه وبين تردّده على أملاك أبيه فى « نهر الكلب » مسرح حبه ومرتع أمانيه

وأهل الفتاة الولهى ماعلموا بهوى ابنتهم لابن سيدهم ومولاهم حتى خشوا أن تحل بهم النكبات من جراء هذا الحب المتهور الطائش ، ويطردهم أسيادهم من المزرعة التى صرفوا فيها سنى حياتهم الهانئة على مافيها من عناء ووصب ، فزجروا الفتاة وعنفوها وزينوا لها حب أبناء القرى العـفّ البرىء من المآثم ، ونعوا عليها حب أبناء المدن المتقلب الأرعن الملىء بالجرائم ، فما كانت لترعوى عن غيها فى رأيهم وضلالها

ورأى الأهل جميعاً أن يلجأوا إلى الحيلة والاكراه فأوهموا الفتاة أن ابن سيدها الذى تجرأت فرفعت إلى عليائه عينيها الخاطئتين قد تزوج ولم يعبأ بوعوده لهـا ولا بعهوده ، وأرغموها على خطبة من لا ينبض بحبه فؤادها المولّه ، فاسودت

فى نظرها الحياة ، وآثرت أن تترهب على أن تزف لغير الحبيب ففرت إلى الدير بعد أن وضعت بعض ثيابها على ضفة النهر فى يوم عاصف الأنواء لتوهم أهلها أنها انتحرت

وضللوا الفتى ، فقالوا له إن فتاته خطبت إلى فتى من بيئتها أليق بها منه وأنها ستتزوج فى العاجل بعد قليل ، وأنها سعيدة كل السعادة فى حبها الجديد لخطيبها الفلاح

وحتموا عليه أن يتزوج بالفتاة التى انتقوها له لينعم ، فرضخ لإرادتهم القاهرة وبنى بابنة بيت رفيع العماد ليشقى !

ولم يلبث أن عاف زوجته واجتوى منزله ، وراح ينفق ماله ويبذل شبابه بين الأقداح والغوانى لينسى حبه الشهيد البكر ، فهزل جسمه وانكفأ لونه من الإدمان فى الشراب والإسراف فى طلب الهوى الأثيم ؛ وما زال كذلك حتى عراه السقام ، وعشّش فى صدره السلّ الوبىء

فى مصح ظهر الباشق بلبنان التقى الحبيبان على غير ميعاد بعد طول البعاد لقاء مرًّا على حلاوته الظاهرة ، فتى ينفث رئتيه ، وراهبة نذرت نفسها لله تعتنى بالمرضى من عباده البائسين . فآسته بحنانها فى أيامه القلائل المعدودات ؛ وبين يديها الطاهرتين ، وعلى مرأى من الأبوين الجانيين ، فاضت روحه إلى باريها تشكو جور الآباء وجنايتهم على الأبناء

هذه هى القصة بظاهرها ، وهذا هو هيكلها ؛ أما روحها ، أما التحليل الدقيق لنفسيات أبطالها ، أما المواقف الغرامية العذرية ، وأما ما يتخللها من مفاجآت حادة عنيفة ولطيفة رفيقة معاً ، وأما السبك المتين والوصف الأنيق ، فهـذا ما ملأ به الأستاذ كرم مائتى صفحة تقرأها مندفعاً وأنت تودّ ألا تنتهى ؛ وهذا ما أودّ من القراء الكرام أن يستمتعوا بمطالعته مثلى ، وينعموا فى لذة قراءته كما نعمت ، فليس الخبْر كالخَبَر ، ولا السماع كالنظر

***

قوام القصة اليوم المقدرة على سرد الحوادث فى حينها وعلى تحليل أبطالها تحليلاً نفسانياً متقناً وعلى الابانة عن هذين العنصرين الرئيسيين — السرد والتحليل — بالأسلوب الشائق الممتع ، واللغة الصحيحة الفصيحة من غير ركاكة ولا إسفاف

والأستاذ كرم لم تغب عنه هـذه الحقائق عند ما كتب « المصدور » فوضعها نصب عينيه فوُفِّق بذلك إلى حدٍّ بعيد

وإن يكن من شىء آخذه عليه فى هذا الصّدد فهو صورة زوجة شفيق بطل القصة ؛ فقد جاءت مشوهة لا يرضى عنها الذوق الفنى .

فشفيق مال بعد زواجه القهرى إلى الدعارة والشراب يدفن فيهما إخفاقه وآلامه ، وهذه ثورة من ثورات النفس الجامحة ، ونزوة من نزوات اليأس القاتل التى تجتاح من كان مثل شفيق وفى حالته ، ولـكن ما بال زوجته تنحدر إلى مثل هوته وهى التى لم ترغم على الزواج منه كما أرغم هو ؟ وما بالها تتمرغ فى مثل حمأته وقد بَنَت به بمطلق رضاها .

أما الأسلوب فى القصة فشائق جذاب ، ولغته متينة عالية وألفاظه عذبة منتقاة وليس فيها من الخطأ اللغوى إلا النزر اليسير

وما كنا نرغب أن نتعرض لذكرها لولا ضننا بهذا السفر النفيس أن تعلق به أمثال هذه الهنات .

قال المؤلف: « حازت منها نظرة دميعة » وصوابها : دَمِعٌ أو دَمِعَةٌ يقال : امرأة دَمِعَةٌ ودَمِع بغير هاء إذا كانت غزيرة دمع العين ورجل دَميع .

« الحب البئيس » صوابها : البائس من بئس الرجل إذا نزل به عُدْمٌ أو بلية يرم لها ؛ وأما البئيس فمن بؤس الرجل إذا اشتدت جرأته فان كان هذا مراده فلا غبار عليها .

« العيش المرير » صوابها : العيش المرّ .

« نواحها الفجيع » صوابها : الفجوع من صِيَغ المبالغة أى الكثير اللهفة والأسف أو فاجع اسم الفاعل .

« زوجها الجندل أمام الموقد » صوابها : المجدّل بتشديد الدال ومعناها المصروع على الجدالة من جدّل الفارسُ قِرْنه أى رماه على الأرض الصُلْبة .

على أن أمثال هذه الهفوات اليسيرة لا تذهب برونق الكتاب ولا تنقص من قيمته . ويقيننا أن كرماً سيتدارك ها فى الطبعة التالية إن شاء الله .

جورج سلستى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ ﴾